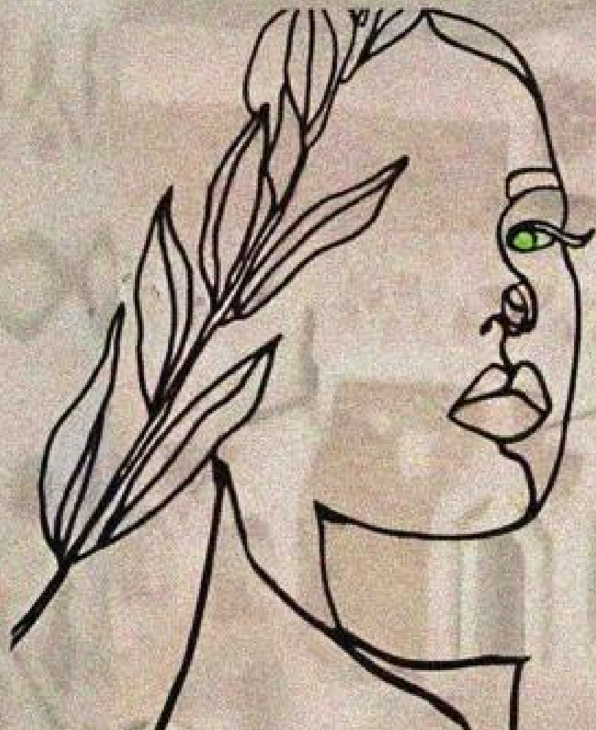

رواية

خضرا

حورية الإرياني

حورية الإرياني

خضرا

رواية

أصوات سيارات الإسعاف أسعدتني، جعلتني أبتسم، فمع أنها دومًا ما تصل متأخرة إلّا أنها نداء من عالم الأحياء يشجع بقايانا الحيّة على التشبث، لكن الذكريات باغتتني وآثرت أن أستسلم لها فقد كانت أحق بأن تعاد بمخيلتي ولو لمرّة أخيرة ، حتى وإن كنت روح بلا جسد، فلقد أيقنت الآن أننا مجرد صور رسمت على شريط الحياة منذ ابتدأ العقل يعيَ بصراعه مع القدر.

9 786030 480791

خضرا

رواية

حورية الإرياني

ح
حورية الإرياني ، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الإرياني ، حورية

خضرا / حورية الإرياني – ط2 جازان ، 1445هـ

176ص ؛ .. سم

ردمك : 1 – 8079 – 04 – 603 - 978

1 – القصص العربية 2- اليمن أ – العنوان

ديوي 39532 ,0 813 1445 / 3228

رقم الإيداع : 3228 / 1445

ردمك : 1 – 8079 – 04 – 603 - 978

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

للتواصل مع المؤلفة:

بريد إلكتروني : umrayman@gmail.com

أَكتب لأراني بِكَ ولأرآكَ وأنتَ أنا...

النهاية ...

أصوات سيارات الإسعاف أسعدتني، جعلتني أبتسم، فمَع أنها دومًا ما تصل متأخرةً إلّا أنها نداء من عالم الأحياء؛ يشجع بقايانا الحيّة على التشبث، لكنني آثرت الذكريات التي باغتتني، فقد كانت أحق بأن تعاد بمخيلتي ولو لمرّة أخيرة، حتى وإن كنت روحاً بلا جسد، فلقد أيقنت الآن، أننا مجرد صور رسمت على شريط الحياة، منذ ابتدأ العقل يعي صراعه مع القدر.

البداية ...

أظنها كانت ليلةً من ليالي كانون الباردة، فما زلت أتذكر شعوري ببرودة الهواء الداخل من النافذة، وأذكر أيضًا رائحة القضبان الحديدية الصدئة العالقة على أناملي، أتذكر وكأن كل شيء أمامي الآن. طفلة يسرّح الهواء شعرها، وتحجزه بيديها الصغيرتين وهيّ تقف أمام القضبان.

قضيت ذلك النهار تارةً على النافذة المطلة على زقاق الشارع الضيق المؤدي إلى البيت، وتارةً خلف باب الدار المغلق من الخارج.

أغلقت النافذة حينما نامت الشمس كما كنت أظن، جلست خلف الزجاج ملتصقة بما تبقى من ضوء الشارع، أقضم خبزة رطبة أعطتها لي قبل أن تخرج.

انتشر ضوء المصباح الأصفر على الحجرة؛ فلم تكن تطفئه، لأن مفتاحه أعلى من أن أصل إليه، هي تعلم أنني أخاف العتمة، وتعرف أنها ستتأخر.

انتظرتها حتى كاد النوم أن يغلبني ككل ليلة، فسحبت لحافي الثقيل وافترشت العتبة الرمادية الملساء أمام الباب.

انتظرتهـا بأمل أن تأتـي لتحملني معها إلى غرفتها لأنام بقرب جسمها الدافئ العبق، لكنها في تلك الليلة عادت بصحبة رجل تفوح منه رائحة كريهة، لم أره جيدًا فقد سبقها إلى غرفتها دون أن ينظر إلي.

تقدمت هيّ لتحملني إلى فراشي الممتد بزاوية الحجرة؛ حيث وسائد الظهر تحمي الفراش من صقيع الجدران ـ كما كانت تقول لي دائمًا - ، وضعتني وأحكمت الغطاء عليّ، ثم دخلت إلى غرفتها، وماهي إلّا هنيهةً حتى غبت في النوم.

عجبت كيف حضر الصبح برفة عين واحدة، لم يكن ضوؤه الخافت ما أيقظني، إنما الأصوات الصادرة من غرفة (خضرا).

أغمضت عينيّ خوفاً حينما سمعت صوت الرجل يصيح في غرفة خضرا، ولشدة خوفي؛ لم أشعر إلّا بدفء الماء بين فخذي.

لم تكن المرّة الاولى التي أسمع فيها أصواتاً مفزعة تصدر من غرفتها، لذلك حاولت أن أشدّ غطائي على وجهي، وأغمض عيني في محاولة مني أن أطفئ الشمس وأجعل الليل يعود، لكني فشلت، فالأصوات ازدادت رعباً، وأنا طفلة لا أكاد أبلغ الخامسة.

توقفت الأصوات ففكرت بالنهوض، لاستبدال السروال

المبلل لكني تذكرت غضب خضرا لو رأتني، فزحفت مستترةً بلحافي حتى وصلت إلى ملابسي الجافة المكومة في زاوية الحجرة. مددت يدي وأخرجت رأسي لآخذ السروال ثم ارتديته تحت لحافي.

اطمأننت بعدها بأن خضرا لن تغضب مني، فلماذا تغضب مادام سروالي ليس مبللاً. عدت إلى مكاني أحاول الرجوع إلى النوم دون جدوى.

طال الوقت وأنا متكومة تحت الغطاء، ألعب بما طالته يداي خارج الفرش.

كانت الشمس قد بدت أشعتها على الجدار الذي أمامي، حين سمعت صوت بكاء خضرا، فتجمدت مكاني من الفزع، وبدأت أبكي ولكن بصوت خافت.

لم يمر وقت طويل حتى سمعت صرخة أخيرة، صرخة بصوتها، تلتها أصوات أشياء تقع وصوت خطوات سريعة إلى باب البيت الحديدي الذي طُرق بعنف، ثم سمعت وقع أقدام شخص يجري في الزقاق خلف نافذتي فاطمأننت أن الرجل المخيف قد خرج.

توقعت أن أسمع خضرا آتية نحوي، ولكن بدلاً عن ذلك، حلّ السكون، انتظرت فترة وجيزة ثم هممت بالنهوض، إلّا أن أكثر الأصوات رعباً كان قد ابتدأ لتوّه، فعدلت عن ذلك

واحتميت بلحافي.

كان صوت أنين موحش امتد لأكثر من نصف ساعة فيما أظن، وأنا متشبثة بلحافي، مغمضة العينين، مبتلة الجسد بكل سوائلي، أضم أطرافي إليّ لأحتمي بها من خوفي، ومن برد صقيع حاد على أطراف الفراش، فبرغم الشمس الساطعة إلا أن بيوت صنعاء تزداد بردًا ، وأنا بفراشي المبتل طفلة أكاد أتجمد.

توقف صوت الأنين، فرغ الخوف من عقلي ومن جسدي، فلكل المشاعر سعة معينة تنتهي ما إن نفرط في استهلاكها.

سحبت نفسي من فراشي وتوجهت إلى غرفتها ، انتصبت أمام باب الحجرة المفتوح أنظر.

رأيت خضرا مرمية على قاع غرفتها ، وسط بركة من سائل أحمر يشبه حمرة شفاهها.

التفت إلى يميني عكس اتجاه باب خضرا فكان باب البيت مفتوحاً ، فأردت إيقاظها لتغلق الباب.

لا أدري لماذا لم أفكر أن أناديها ، وفضلت الذهاب إليها بنفسي. مددت خطواتي كي لا أدوس على الدماء، وقد لفت نظري صندوقها الخشبي مرميًا على الأرض، ذلك الصندوق الذي طالما كانت تفتحه لي في بعض ليالينا التي نقضيها وحيدتين، فتريني حليها وبعض أوراق ملونة ، وكذلك عقدها

الأخضر الذي كانت تلبسه أمام مرآتها ، ثم تمتد على فراشها ، و تضع رأسها على الوسادة المرتفعة لتجعلني أجلس على صدرها ، وتقربني لوجهها ثم تسأل ...

أيهما أكثر خضرة ، عيناها أم العقد؟

كنت أنظر مباشرة لعينيها وأراهما تلمعان ، ثم أراني فيهما ، أنا مكررة اثنتين ، أنا في كل عين من عيون خضرا.

عينا خضرا أجمل من العقد ، لكنني لن أستطيع أن ألبس عيني خضرا. فأجيبها بضحكة منّي ، وأمد يدي إلى العقد لألبسه.

تلبسني إياه وهي تحكي عنّا ، أنا وهي ، في بيت جميل ، وأنها عروس جميلة ، وعن أطفالها والمدرسة وأقلام وأشياء كثيرة.

كانت تحكي لي وهي تقف مبتسمة للمرآة ، فتتمايل وهي تضع كفيها على خصرها بدلال ، و تنظر إلى ارتداد شعرها الكثيف إثر نصف دورة تقوم بها أمام المرآة.

جميلة خضرا ، ذاك ما أذكره منها ، وأذكر أنّي اعتدت تقليدها في غيابها ؛ علّني أكون مثلها جميلة ، كنت أضع يدي على خصري ، أحاول تقليد حركتها ، لكن المرآة كانت أعلى مني ، لذلك حاولت مرةً الارتفاع إليها ، فوضعت الوسائد فوق بعضها وصعدت عليها لأصل ، كدت أنجح لولا أن الوسائد

اختلّ توازنها فوقعت بشدة.

خشيت أن أخبرها بما جرى لي في غيابها، فقررت الكتمان، لكنها اكتشفت من الوحمة الزرقاء على كتفي وهي تحممني، بكيت كثيرًا، بكيت لأن خضرا عرفت بسقوطي، فقد كانت تضحك بعلو صوتها حينما عَلمت، وكلما رفعت صوتي بالبكاء؛ يزداد ضحكها عليّ أكثر، فتحاول إسكاتي دون جدوى. حنقت يومها، ولم أرضَ عنها حتى راضتني بجعلي استخدم حمرتها، في تلك اللحظة فقط رضيت جداً، رضيت لأني أصبحت جميلة كخضرا.

تلك الذكريات عادت إلي في لحظة واحدة، وأنا أخطو لأصل إلى صندوقها المرمي على الأرض، وما أن التقطته وحملته بيدي، ووجدته فارغًا، شهقت جزعًا، صوبت نظري مباشرة إلى خضرا منتظرة غضبها، لأجدها تنظر نحوي وقد تحولت عيناها إلى عينين مخيفتين، ففزعت منها، صرخت ثم ركضت نحو الباب أجري، غير آبهة بتلطيخ نفسي بالدماء.

خرجت أهرب مبتعدةً عن البيت، خوفًا منها، من خضرا، من ملجئي وأماني الذي لا أعرف في الدنيا سواه...

توقفت من التعب في سوق كبير، كان عبارة عن رصيفين عريضين يفصلهما شارع للسيارات. مشيت بين الدكاكين المتسلسلة حتى توقفت على باب مطعم كان يناديني برائحة

الطعام، ذهبت جائعة ووقفت على بابه.

كنت أحدق بالبائع الأسمر وهو يخاطب زبائنه الذين كانوا يعطونه ورقاً ملوناً كأوراق خضرا، فيعطيهم بالمقابل رغيفاً ملفوفاً بورق أبيض، أو صحوناً ممتلئة بالطعام.

انتظرت لعلّ أحداً منهم يراني ويطلب مني أن آكل، دون جدوى، وبعد مرور بعض الوقت تعطف عليّ البائع الذي كانوا يسمونه يحيى، أعطاني رغيفاً دافئاً، وصحناً من الفاصوليا الساخنة.

أنا أذكر اسم يحيى لأنه علمني معنى الأسماء، فلم يسألني أحد قبله عن اسمي، ولم أكن أعرف قيمة الأسماء قبلها، حتى أنّي لا أذكر كيف كانت تناديني خضرا، فقد كنت أنظر إلى عينيها وأعرف أنها تعنيني، أو قد تكون هي أيضًا لا تعرف اسمي، لست أدري!

أكملت الطعام الذي أعطاني يحيى وأرجعت له الصحن، لكني احتفظت بالكرتونة الدافئة التي وضع عليها الصحن، فضممتها بذراعي أبحث عن دفء تسرب من قلبي، وأحسست به يتجه إلى كل أطرافي، فنمت وقد غطتني أشعة الشمس الساقطة بقرب الزاوية.

لم أفتح الصندوق يا خضرا ، ولست أدري أين عقدك...

صحوت على صوت طفلة تلبس فستانًا دافئًا بلون الزهر ، تضع على رأسها طاقية من الصوف الأحمر ، كانت تضحك وبيدها لعبة جميلة تدنيها نحوي ، ابتسمتُ لها ، وضحكت حين سقطت لعبتها من يدها ، ثم تقدمت نحو اللعبة لأراها عن قرب ، لكني تفاجأت بالطفلة وقد خطفت لعبتها بسرعة لكي لا أصل إليها ، ثم صَرخت وهي حنقة ومستنجدة (ماما) ورحلت.

(ماما) تُرى ما معنى هذه الكلمة ، ولماذا اختيرت سهلة هكذا على أفواههم وصعبة علينا نحن؟ ولماذا تترك على قلبي إلى اليوم أثرًا حزينًا !

عدت إلى زاويتي وإلى كرتونتي ، وأنا أفكر بكلمة (ماما) التي كانت دافئة من فمها كالشمس ، وباردة على قلبي كالرصيف ، كشمس شتاء صنعاء ، تلك التي تحتفظ بالدفء لنفسها فقط ، شمس متحيزة ، لا تعطي الفقراء دفأهم ، بل تشعرهم فقط باحتياجهم وعوزهم الدائم لها.

عدت إلى باب المطعم أحمل في صدري قلبي المكسور ، وأتذكر خضرا ، فهي من كانت ترعاني وتذكّرني بأقرب خيال قد يكون للماما ، لكن ذكرى وجهها ، وعينيها المخيفتين وهي تحدق بي باغتتني في تلك اللحظة ، فخفضت

عينيي خوفًا من تخيلهما ، وبدأت أرجف من الخوف والبرد معًا.

عندها ، رآني يحيى واتجه نحوي، كان طويلًا جدًا ، فجلس مقابلي القرفصاء كي يوازيني، وقفت بدوري لنفس السبب ولأنظر في عينيه الكبيرتين وهو يسألني.

كانت أسئلة كثيرة لم أفهم منها شيئًا ، ولكنه حين سألني عن اسمي تذكرت خضرا ونطقت باسمها.

أعطاني يحيى كوبًا دافئًا من الشاي بالحليب، شربته، ثم أغلق باب دكانه الأزرق بقفل كبير، وأخذني معه نحو مخفر الشرطة كما قال لي.

أشار لي يحيى وهو يقول إننا اقترينا ، فرأينا رجلًا قادمًا من اتجاه المخفر، أظنه كان صديقه، فقد استوقفه وسلّم عليه ثم تحدثا معًا. رأيت نظراتهما تتجه نحوي، وسمعت كلمة مسكينة لأول مرّة.

لم أكن أعلم أن هذه الكلمة ستكون لقبي، وستكون الكلمة التي سأعرّف بها عن نفسي لفترة من عمري.

لم أفهم في ذلك الحين أيضًا سبب الحزن الذي غمر عيني يحيى الكبيرتين، فخمنت أن حزنه قد يكون بسبب قميصه القديم الباهت، حينما رأى صديقه يلبس قميصًا جديدًا بألوان زاهية.

أردت أن أقول له لا تحزن، فأنت عيناك جميلتان وتلمعان،

بينما صديقك لم تكن له عينان تلمعان، حتى أنني الآن لا أذكر عينيه وكأنه كان بلا عيون، ففي الحقيقة، كل ما أتذكره من صديق يحيى هو قميصه الملون ويديه اللتين كان يشير بهما بلا مبالاة نحوي ونحو الجامع.

نظر يحيى إليّ بحزن، ثم أخذ بيدي، وأوصلني إلى باب الجامع. جعلني أجلس هناك وقال لي مرة أخرى إن اسمه يحيى، كان يقولها بحرص لكي لا أنسى، وقال لي أيضًا أن أعود إليه إذا جعت، و تركني و رحل.

خيّم الليل سريعاً، كنت قد التهيت بمنظر الناس حولي، يذهبون ويرجعون نحو الجامع، منهم من تكررت رؤيته، ومنهم من لم أره إلا مرّة واحدة.

كان صوت المؤذن يفزعني، فعند بداية التكبير كان عاليًا ومفاجئًا، فيخفق قلبي بشدة، فأخبئ أذنيّ ورأسي بيديّ الصغيرتين، وفي تلك اللحظة، رآني العم ناجي و عطف عليّ وأدخلني معه إلى فناء الجامع.

كان حوش الجامع فسيحًا. أرضيته مصقولة بحجر رمادي، وفي إحدى جهاته رأيت المياه تتدفق من جوانب الجدران بحنفيات صفراء، والناس منهمكة تغسل وجوهها وأياديها وأرجلها، فطلب مني العم غسل وجهي ويديّ ورجليّ مثلما يفعلون، ذهبت واغتسلت، عدت إليه والماء يقطر من أطراف

ملابسي. نظر العم إلى قدميّ العاريتين وملابسي المبتلة ، فخلع وشاحه ولفني به ، أدخلني إلى بهو الجامع ، أشار إلى ركن فيه ، وطلب مني أن أجلس هناك لأنتظره.

كنت مبهورة ببهو الجامع فهو أكبر من بيتنا بكثير ، سقفه العالي ، أرضيته الحمراء ، ثم انتبهت لملمس الأرضية الناعم ، وانتبهت أنها مفروشة بالكامل بسجاد أحمر وثير ، مرّرت قدمي عليه فكانت شعيرات المفرش ترتد عكس اتجاه قدمي.

أحببت ذلك فوضعت يدي ومررتها ، وكررت الحركة مرات عديدة بيديّ وقدميّ ، وما إن شعرت بالدفء حتى دخلت في نوم عميق.

أيقظني العم ناجي ليلبسني ما اشتراه لي من ملابس وجوارب صوفية. لم أنس ذلك الشعور طيلة عمري ، فحين أدخلت رجلي إلى البنطال وشعرت بالدفء تذكرت قول الفتاة (ماما).

كنت أنام في الجامع كل ليلة ، وأخرج طوال اليوم ، أحدق في الناس ، يعطونني مأكلي وملبسي وأعود في الليل إلى ركن الجامع خلف العمود لأنام.

لم أحاول مصادقة أحد ، فعادة كانت تنتهي صداقتهم بضرب أو مشاجرة كبيرة ، كنت أتحاشى كل من يكلمني ،

علمني ذلك قيّم الجامع، وقال لي أن أكون معهم كالخرساء، ولذلك يجعلني أنام في الجامع كل ليلة.

صرت بقرابة التاسعة، عرفت ذلك من رجل أشيب الشعر، كان يسأل القيّم عن عمري وهو مقطب الحاجبين مزموم الفم، مع أنه كان يبتسم لي كثيرًا وهو وحده، ويناديني أحيانًا للدخول إلى بيته لإعطائي ملابس جديدة، لكنني كنت دائمًا أرفض، فلديه قطة سوداء مخيفة لها ناب أبيض وعينان مخيفتان، قال لي أحد الاولاد أنها ليست قطة بل عفريت قد يسخطني إلى فأر. خفت كثيرًا وهو يحكي لي ذلك، وأذكر أنّي رأيته مرّةً وهو خارج من دار ذاك الرجل باكيًا وهو وحده، وحين قلت له أن القطة لم تسخطه إلى فأر صرخ في وجهي والدموع تملأ عينيه.

كانت نظرات الناس نحوي تختلف من شخص إلى آخر، فلم أكن مزعجة بطبعي كبعض المساكين، كنت فقط أمدّ يدي إليهم وأنا أبتسم دون أن أتفوه بكلمة، و ما إن يروني يبتسمون، منهم من يعطيني، ومنهم لا، فأرحل بهدوء بمجرد أن أسمع كلمة (على اللّه)، أحيانًا كانوا يتبعونها ب (يا قمر)، في البداية كنت أرجع لأشرح لهم أنهم مخطئون، وأنني لست (قمر)، ثم فهمت أنهم كانوا يثنون علي بتلك الكلمة.

لم تكن تعني لي الكلمات كثيرًا ، فكل ما كان يهمني من الناس، ابتساماتهم، فلكل وجه منهم ابتسامة مختلفة ، بعض الابتسامات تحمل حزنًا مخفيًا في ملامح صاحبها ، والبعض كانت لديهم ابتسامات لا تعني شيئًا ولا تحمل معنى ، انتبهت لذلك لأن وجوههم لا تتحرك حينما يبتسمون.

أمّا عَن أجمل ابتسامة رأيتها ، فقد كانت لفتاة أكبر منّي، كانت تحمل حقيبتها على كتفها ، وثلاثة كتب ملونة تضمهن بفرح إلى صدرها ، ترتدي على رأسها حجابًا ناصع البياض وتبتسم، لأن حذاءها أيضًا كان أبيض.

أعطتني ريالاً من جيبها ، وكل ملامح وجهها تتحرك ، حينها لا أذكر أنني ابتسمت لها ، فكل ما أذكره هو ابتسامتها فقط، ابتسامتها التي غمرت كل شيء بالبياض كحذائها الأبيض.

مرت الأيام وأدركت أن نظرات البعض ممن يتوافدون إلى الجامع غاضبة من وجودي، لا أدري ما السبب، فأنا أساعد في تنظيف ردهة الجامع كل يوم.

صالح الدوهي.. هكذا كان اسمه، صاحب البقالة التي بجوارِ الجامع. كنت يومها قد جمعت خمسة ريالات، اثنان من مصلٍّ كريم لأول مرّة أراه في جامعنا ، وثلاثة ريالات متفرقة ، من نسوة كل واحدة منهنّ وجدتها في شارع مختلف يؤدي إلى السوق.

فرحت بالخمسة ريالات، وقررت أن أحتفل بها بعلبة عصير وكيس من البطاطا المقليّة، كان الوقت قريبًا لموعد أذان المغرب، كنت أخشى أن يغلق صالح الدكان قبل أن أصل، ذهبت جريًا أمدّ له الخمسة ريالات وأطلب منه حاجتي، كان الدكان قد أَفرغ منه الأطفال حاجتهم، لكن أكياس البطاطا التي أريدها ما يزال منها الكثير أمامي، هناك رأيتهن خلف صناديق الماء.

لكنه لا يجيبني!

طلبت حاجتي مرة أخرى مع أنني متأكدة أنه سمعني في المرّة الاولى، نظرته الثاقبة نحوي جعلتني أشك أنه مغيّب، أو أنه كان يفكر في شيء أذكّره أنا به.

انتظرت قليلاً حتى كدت أن أرحل لكنه فجأة استعاد وعيه، ونادى عليّ وقال:

ـ ادخلي وخذي حاجتك.

لا أدري لماذا ترددت، فما إن صعدت على الحائل الموجود أمام باب البقالة لكي أدخل، حتى اشتممت رائحة ذكرتني برجال خضرا، ففضلت أن أرمي بنفسي إلى خارج البقالة.

سقطت، فتقدم نحوي مسرعًا يمدّ يده لكي يرفعني ويدخلني إلى الدكان، وحينما شعر برفضي، اجتذبني بشدّة جعلتني أصرخ في نفس اللحظة التي كبّر المؤذن فيها لصلاة المغرب.

لم يسمع صراخي أحد، كان صوت التكبير أكبر من صوتي، استغلّ صالح الدوهي صوت المكبرات، وأدخلني إلى الدكان عنوة.

رماني على أرضيّة الدكان القاسية وتوجه ليغلق الباب، حُجب الضوء في دكان قاسٍ ومغلق؛ عدا من أشعة ضئيلة تتسلل من خلال فتحات لحام الباب الحديدي، لم أجد صوتي لأصرخ، كنت مرتبكة لا أفهم ما الذي يجري، فبرغم من أنه كان مبتسمًا إلا أنها ابتسامةً مخيفةً لا تدعو للراحة، رفعت رأسي لأنظر حولي فوجدت صناديق المياه وأكياس البطاطا التي أردتها وبجوارها تخيلت خضرا!

كانت تنظر إلي بنظرتها المرعبة، حينها ملأني الخوف فتجمع صوتي في حنجرتي وصرخت كانفجار.

صرخت بكل ما أملكه من صوت في أحشائي فقد أردت أن أخرج كل مافي جوفي: خوفي، صوتي، كلماتي وأمنياتي وخضرا.

نظرت خلفي لأرى صالح الدوهي وقد بدأ ينزع ملابسه، وفي تلك اللحظة سمعت الباب يضرب بعنف.

كان العم ناجي يصيح من خلف الباب، يتوعده بأنه سيقتله إن لم يفتح.

ارتبك الدوهي ما أن سَمِعَ صوت العم، واستعاد ملابسه التي

كاد أن يتجرد منها ، ثم نظر إليّ وهو يتوعدنيّ، وفتح الباب.

لـم يمهله العم ناجي ليتكلم او ليشـرح وإنمـا اجتذبه من قميصه وقال له :

_ ماذا فعلت بها؟

فحلـف الآخـر بأيمان مغلظة أنـه لم يلمسـني، وقال أنني اختبـأت في دكانه كي أسـرق البطاطـا حينما يخرج، وأنه وجدني وهو يغير ملابسه للصلاة.

رماه العم إلى الأرض، ومد عنقه؛ ليراني وأنا متكورة على أرض الدكان أرتجف خلف كراتين الماء.

كان التعـب باديًـا على العم حتى أنـه كان يلهث، كأنه كان يجري ليصل إلي قبل أن تصل براثن الدوهي إلى جسدي، شعرت بالأمان وهو معي مع أنه كان غاضبًا جدًا.

أحب أن أكون بقرب العم دومًا ، فبسـببه سُـمحَ لي بالنوم في الجامع، برغم أن ذلك كان يغضب القيّم في بادئ الأمر، لكنـه وافـق فقط، حيـن تعهد له العـمّ أنه سـوف يعوّض أي تلف يحصل بسـببي. كنت أسعد برؤية العمّ وهو يلبس غترته السـكرية اللون، تلك الموشاة بنقش برتقالي على أطرافها، كانـت المفضلة لـدي فهي التي أدفأني بها يـوم وجدني أمام الجامع. كان يضعها على رأسه فتضم لحيته البيضاء القصيرة، وما إن يخرج من الصلاة حتى ينزلها إلى كتفيه.

هو دومًا يســأل عنّي ويوصي بي قيّم الجامع، لذلك هو من أدرك غيابــي، أو قد يكون رآني من بعيد حين أدخلني صالح الدوهي إلى دكانه، وأغلق الباب.

ذكرياتــي عــن ذلـك اليوم كأنهــا ممحوّه، فقـد حاولت نسيانها وإزاحتها من رأسي، لكنني في هذه اللحظة أتذكرها جيدًا، وأتذكر كيف أن العم ساق الدوهي أمامه إلى الجامع، ويدي بيد العم يمسكها بقوة.

كانـت الصلاة قد أقيمـت، لذلك انتظرت خلف العمود، كما طلب منّي العم وبعد إتمام الصلاة جلسوا مع إمام الجامع الذي كان يسـتمع إليهم بحرص، ثم ناداني لأتقدم وأحكي له ماجرى معي من صالح الدوهي.

كنـت أرتجف خوفًا فلم أكن أعـرف ما الذي كان علي أن أقوله، صالح الدوهي لم يضربني لأشتكي منه، حتى أنه كان يحـاول تهدئتـي حين كنت خائفة فـي دكانه المغلق، لكنـه عنفنـي وآلمني قبلها حيـن جذبني إلى دكانـه بالقوة ليرميني على أرضيته!

ذاك التناقض أربكني، فعادت إليّ نفس المشاعر التي لم أسـتطع توصيفها، فشـعرت في تلك اللحظة كما لو أنني في الـدكان مرّة أخرى، لاحـظ العم ارتباكي، ربت بحنان على كتفي وقال:

ـ لا تخافي يا ابنتي، أنت مسئولة منّي، من الآن فصاعدًا...

لم أفهم ماذا كان يعني، ولكنني اطمأننت لحنان العمّ.

بعد أن أتممت سردي لما حدث، صرخ صالح الدوهي بحنق وقال إنني كاذبة، كان يرفع صوته إلى أن طُرد من الجامع، عرفت بعد ذلك أنه طُرد من المنطقة كلها.

أخذني العم ناجي يومها إلى منزله، ظننت أنه سيعطيني عشاءً ساخنًا لأذهب وآكله مع بقية من معي كعادته، لكنه هذه المرّة أمرني بالدخول إلى داره.

كانت الدار بثلاثة طوابق، يعلوها طابق رابع، به غرفة واحدة بنوافذ كبيرة تزيّن الدار بزخرفها الأبيض كعادة دور صنعاء، يسمونها المفرج، أمّا الطابق الأرضي، وهو الأول كان يصاحبه فناء صغير مغطى كاملًا بطبقة إسمنتية، ويحوي المطبخ ومخزنين، أما الثاني والثالث، فكل طابق منهما به غرفتان وحمامهما، أو كما كانوا يسمونه مستراح. تجتمع أبواب الغرف في كل طابق على حجرة صغيرة كانت تسميها العمة: الحجرة. ذلك لم أره إلّا بعد مكوثي في الدار لأكثر من ثلاثة أشهر، فلم أتجاوز الطابق الأول قبلها، فقد كانت زوجة العم لا تثق بي أبدًا، ولطالما نهرت العم ناجي وعايرته لإحضاري أنا ابنة الشارع إلى دارهم المحترمة، لكن العم كان دومًا يدافع عنّي، ويخبرها أنني سأكون لهما يد عون بعد ولديهما ....

للعم أبن اسمه خالد، و ابنةً اسمها سماح، لا أعلم عن خالد الكثير، لكني بالطبع عرفت سماح، فقد كانت تزورنا كل يوم جمعة. علمت أنها تزوجت قبل أن آتي إلى الدار بشهور،

لذلك وجد العم لي منفذًا إلى الدار، فبعد زواج سماح كانت العمة تعاني التعب من أعمال المنزل اللامنتهية، وكانت تطلب منه خادمة لتساعدها، وحينما أحضرني أخبرها أنني بمثابة خادمة ستربيها على يديها، وتكسب بي الأجر دنيا وآخرة، لكنها كانت تتضايق وتقول:

«من الشارع، لا ندري لها أبًا ولا أمًّا، ولا نعرف ما الذي ستجلبه لنا من ماضيها؟».

فيجيبها العم ويقول:

«وتلك الخادمة التي ستحضرينها من بلادها، هل ياترى تعرفين أصلها وماضيها؟».

فتسكت العمّة وهي حنقة من منطق العم ناجي غير القابل للإطاحة.

أسكنتني العمّة غرفة في حوش الدار أمام المطبخ، كانت تستخدمها كمخزن للمؤن، وبجوارها حمام صغير للغسيل.

أحببت المكان رغم ضيقه، خصوصاً بعد أن فرشته لي العمّة بفرش صغير و بطانية ثقيلة، مع أن المخزن دافئ ولا يحتاج إليها، إلّا أنها أصبحت أكثر أشيائي العزيزة، فقد عاشت معي جلّ عمري، رأت حزني وانكساراتي، فرحي واكتمالي، تلك القطعة الملونة، كانت حديقتي السرية التي ضمت جسدي بكل احتياجاته، بملمسها الذي شكّل

أخيلتي، و ألوانها التي علمتني الرغبة في الحياة.

نمـت تلك الليلة وحلمت بصالح الدوهي يرميني من ارتفاع شاهق إلى فم خضرا المفتوح.

فصحوت مفزوعة، وخرجت أجلس على باب غرفتي. سمعت بـاب البيت يُفتح، ركضت نحوه لأرى من هناك، فرأيت العم ناجـي متوجه نحو الجامـع، أردت الذهاب معه، لكنه رفض وقال لي:

«من اليوم ستصلين في الدار، ولا خروج لك إلّا بموافقتي».

شـعرت بالضيق يومها، فالدار صغيرة، والعمة لا تحبني، ولكن لأن العم طلب ذلك لن أخالفه. جلست في الحوش أمام غرفتي، عيناي تتسـلقان الجدران إلى السـماء، صوت الأذان كان بعيدًا، لكنني تذكرت أنه بقرب العم، انتهت الصلاة، سـمعت الباب وصـوت خطوات العـم على الدرج، ثـم ارتفعت أصوات العصافير، السحب في الأعلى تزداد بياضًا، والسماء تبدو أعلى من كل يوم، عدت إلى فراشـي، ولم أشعر بعدها بشيء إلّا حينما سمعت العمة تصيح بي لأصحو من النوم.

يومًـا بعد يوم اعتدت الحياة في الدار، فأحببت وقع الدار على نفسـي، الجدران الحامية، شـعوري بالأمان بقرب أناس أعرفهم ويعرفونني، أحتاجهم ويحتاجون إليّ.

شـعرت معهـم بالطمأنينـة حتى مع قسـاوة العمّـة، فبرغم

عـدم قبولهـا ليّ مهما بذلـت من جهد ، إلّا أنهـا كانت تعرف احتياجاتـي ، وتـدري كيف تعلّمني لكي أحسـن التصرف ، ولولاهـا فـي يوم بلوغي لكنت رميت بنفسـي من على سـقف المسـجد هلعًا ، فلم أكن لأفهم ما الذي جرى لجسـدي ومن أين تأتي كل تلك الدماء الموحشة.

أتذكر أن سماح كانت عندنا في الدار ، فهي كما فهمت ستلد بعد ثلاثة أشهر ، كانت تلبس ثوبًا أزرقًا يبرز لون شعرها الأسـود المموج الطويل الـذي يغطي بطنهـا المنتفخة ، كان لثوبها ياقة من حلقات كأنها من معدن الذهب ، كنت أحدق فيها بإعجاب ، جميلة سماح ولكنها ليست بجمال ملامح العمة. يومهـا أكملنا الغـداء وأنهيت عملي في المطبخ ، فسَـكبت لهن القهوة وصعدت اليهن في غرفة الجلوس أمام غرفة العمّ ، دخلت حاملة القهوة وقد استلّت الشمس من النافذة ، لتعاكس الصحن الفضي الذي بيدي ، وضعت الطبق بفناجينه الممتلئة علـى الأرض أمامهـن ، وارتفـع صوت أذان العصر فاسـتأذنتُ للذهاب للصلاة ، رأتني سماح وقالت وهي تشير لوالدتها :

«أخبريها ، لقد اتسخت ، وتقول ستذهب للصلاة! ألا تعلم؟»

لـم أفهم ماذا كانت تعنـي ، فنظرت إلى ثيابي من الأمام؛ ظنًا منّي أنني أوسختها في المطبخ ، فاتجهت بنظري إلى العمة التي نظرت نحوي باندهاش هي تقول:

«لا بد أنها أول مرّة».

لم أفهم أيضًا، إلى أن قالت لي سماح ناصحة لي برفق:

«لا يجب عليك الصلاة في أيامك هذه لقد أتاكِ الحيض».

وبعدها أكملت لي العمّة كل الحكاية، كنت مرتبكة وخائفة، ولولا العمة التي خففت من خوفي وارتباكي وعلمتني ماذا أفعل، لكنت ظننت أنه الموت البطيء.

أصبح لسماح ابنتان، صفية ومرام، كل واحدة منهما أجمل من الأخرى، أحببتهما حبًا جمّا كأنهما ابنتاي أنا، لطالما اهتممت بكل صغيرة وكبيرة تخصهما.

ما أسرع ما توالت الأعوام وأصبح عمر صفية ثلاث سنوات، فازداد البيت بهجة بها وبحديثها الظريف، أمّا مرام الجميلة، فقد صارت قرابة العام والنصف، وقد كانت تجعل كل أهل الدار يلتفون حولها لكي نصغي فقط لتأتآتها الظريفة وهي تستمتع بملاحقتها للقطط.

امتلأ الدار بهجة بسببهن، لولا أنه في ذلك العام بُليّ العم ناجي بعينيه وضعف بصره قليلًا قليلًا حتى فقده تمامًا.

لقد كان رجلاً صبورًا، متماسكًا، لمْ يبدِ عجزًا ولا نقمة، عدا في ليلة من الليالي، سمعته يبكي بحرقة وهو يقول للعمة:

«حرمني خالد من النظر إلى وجوه أولاده».

كانت العمّة تدافع عن ابنها وتقول :

«ذهب ليصلح أمره، وليثبت نفسه أمامك، بعد أن هدمتها أنت بنقدك المتواصل له، فلا تلمه على ما أجبرته أنت عليه».

لم أرَ خالدًا ابن العم ناجي من قبل سوى في الصور. كان يبعث دائمًا بمبلغ شهري منذ وصلت إلى الدار، حتى أن العم ناجي قال للعمّة وهو يقصدني: «انظري كيف وصل الخير لابنك يوم كفلنا هذه المسكينة».

كان العم ناجي يكتفي براتبه الشهري البسيط الذي يتلقاه بعد تقاعده، إضافة إلى مبلغ سنوي حصيلة أرض لهم خارج المدينة. وكان ذلك يكفي ويغطي احتياجات البيت كاملة، لكن العمّة كانت تحب تزويد الدار بمفاخر الأثاث والزينة، لتتباهى أمام زوارها وجيرانها، خصوصًا أهل زوج سماح، التي ولدت في المرتين عندنا في الدار، فقد أقامت لها العمة مولدين فاخرين، كل واحد منهما استمر لمدة أربعين ليلة. والحق يقال إنها كانت سخيّة عليّ في الملبس والمأكل، فقد كان المبلغ الذي يبعثه خالد يغطي احتياجاتها وأكثر.

و بعد عام من فقدان العم ناجي لنظره، وصل اتصال من خالد يخبر فيه والدته أنه قادم هو وأولاده وزوجته، وأن زيارته ستكون لمدة لا تتجاوز الشهر.

كانت فرحة العمّة عظيمة، كذلك العم ناجي فقد كانت

الفرحة تغمره رغم محاولاته إخفاءها.

لن أستطيع إخباركم بكميّة التفاصيل التي اهتمت بها العمّة لهذه الزيارة. فكان كل شيء يوضع بدقة لأجل راحتهم.

حتى أنها اشترت طاولة طعام بأرجل طويلة وكراس عالية؛ احترازًا منها لأن تكون زوجة خالد وأولادها قد اعتادواً الأكل على الكراسي. فهيّ كما عرفت ليست من بلادنا ، وإنما من بلد مجاور، وهي أخت صديق خالد المقرب الذي من فرط حبه واحترامه لخالد زوّجه أخته (ليلى).

مازلت أذكر حيرة العامل حين أحضر الطاولة من متجر الأثاث، فليس في الدار كله مكانًا يناسب طاولة كهذه.

لكن العمّة أخيرًا قررت أن تضعها في فناء المطبخ أمام غرفتي التي كانت مجرد مخزن لا نافذة فيه وقالت:

«نضعها هنا على أمل أن لا يهطل المطر إلا بعد زيارتهم، ومن ثم سنخبئُها في غرفتك».

لم يكن الأمر منطقيًا البتّه؛ و خصوصًا حينما اكتشفنا بعد ذلك أن زوجة خالد أبسط مما تخيلنا ، حتى أنها لم تعتد استخدام الملعقة للأكل، فهي من قوم يأكلون بأيديهم دون استعمال الملعقة. ولكم أن تتخيلوا مقدار خيبة أمل العمّة من هكذا منظر، ولكن حرصًا على مظهرها أمام أهل زوج سماح استطاعت أن ترغم ليلى على استخدام الملعقة.

أما عن طاولة الطعام، فقد أخذها العمال إلى بيت أخت العمة كهديّة لأختها بمناسبة انتقالها مؤخرًا لمنزل جديد.

خالد في بداية الثلاثين من عمره، طويل القامة، أبيض البشرة، ذو شعرٍ كثيف أسود، له شامة سوداء على خده الأيمن.

يلبس دومًا أثوابه البيضاء الطويلة، وحين يتأنق للخروج يلبس معطفه الأسود عليها، ويحتزم عسيبه الفخم، ويتعطر بعطر أخاذ، شعور جميل يجتاحني كلما رأيته، مع أنه يشبه العمّة، وهي بالطبع أجمل من العم ناجي بكثير.

لست أدري ما الذي جعلني أشعر بأنّي أعرفه، شيء يجذبني لأراه واتفرس ملامحه، شيء لا أدري ما هو، كنت أستغل تجاهله غير المتعمد لي، لأسترق النظر إليه أكثر. أذكر في مرة من المرات حين دخل إلى فناء الدار يبحث عن العمّة، فجال بعينيه السوداوين على الفناء كاملًا، ولم يلتقطني بعينيه أبدًا، كأنيّ لم أكن أمامه، حتى أنني تساءلت بيني وبين نفسي، هل أنا مرئية له؟ وهل يسمع الضجة التي يحدثها بي، فقد كان كلما حضر أو رأيته، أو حتى إن سمعت صوته، يدق قلبي بضجيج يكاد يكون مسموعًا.

لاحظت العمّة ارتباكي في وجوده، فوبختني، مع أني كنت مازلت في الثانية عشرة، لكنها جلست تكرر على

مسامعي، أن سيدي خالد تزوج من سيدة في أهلها ، وأنه لا ينظر لجمال أخرى، مهما كانت أجمل من زوجته.

كنت أستمع إليها بحرص حينما تتكلم عن ليلى، ففهمت أن العمّة ليست مقتنعة بها كزوجة لخالد ، فليلى قصيرة القامة مكتنزة -أكثر مما ينبغي_ مقارنة بقامة ابن العمة الوسيم، وبرغم ذلك كانت العمة تتعمد إذلالي أمامها ، حتى أن ليلى كانت تعاملني بحقارة، ظنًا منها أنها كلما أذلتني سوف تكسب رضا أم زوجها.

كان لخالد ثلاثة أبناء، محمود في التاسعة، وماجد أصغر منه بعام، وفؤاد الذي ما يزال رضيعًا. الصبيّان كانا مثالًا حيًّا للتربية الفاشلة، فلقد قلبا البيت رأسًا على عقب منذ وصولهما ، لكني كنت أصبّر نفسي بأن وجودهما لن يزيد على شهر واحد، لذلك استطعت التغاضي عن كل استفزازاتهما المتواصلة.

وفي يوم مشؤوم أمرتني ليلى أن أصعد لأنظف غرفتها بينما ستخرج هي و العمّة إلى السوق.

كان الولدان مع أبيهما وجدهما في زيارة للأرض التي تقع خارج المدينة، أمّا الصغير فقد أخذته والدته معها.

وما إن خرجتا هي والعمة حتى خلى الدار إلا مني، فحملت مكنستي وممسحتي بحماس، وذهبت لأنظف الغرفة،

وياليتني لم أعبر باب غرفتها في غيابها ......

غرفتا سماح وخالد في الطابق الثالث، كان من النادر جدًا أن أصعد إلى هناك فهما دومًا مغلقتان في غيابهما، ولكن بقدوم خالد وأبنائه شغرت الغرفتان، فابتدأت بتنظيف غرفة الأولاد ومن ثم اتجهت إلى غرفة خالد وزوجته، نفضت السرير أولاً كعادتي، ثم سحبت ملاءته وبدّلتها، ورفعت المخدات والوسائد ورتبتها على السرير، ووضعت اللحاف، وأخيرًا مسحت خشب السرير، ثم اتجهت إلى النافذة أمسحها وأرفع الستائر وأنفضها، وفي تلك اللحظة، واجهت المرآة، رأيت نفسي وقد زدت طولاً، لم تسنح لي أية فرصة من قبل أن أنظر إلى مرآة بهذا الحجم وأنا وحدي، ثم دنوت بنظري إلى أسفل المرآة فرأيت كل مساحيق التجميل التي تستخدمها ليلى، وعطورها وعطر خالد.

اقتربت برأسي لأشم العطور، فلم أكن أتجرأ أن أ لمس شيئًا، حتى ولو للمسح فقط، فوقعت عيناي على عقد يقع خلف عطر خالد.

عقد يعرفني وأعرفه عقد أخضر بلون عيون خضرا..

خضرا التي لم أرث منها شيئًا سوى اسمها الذي لم يعرف لساني سواه حين وجدوني، فصار إرثي الوحيد من الإنسانة التي لا أعرف حتى ما هي صلة قرابتها بي.

خضرة عيني خضرا على ذلك العقد مازالت موجودة، شككت أنه يشبهه، أخذته بين يدي دون أن أشعر بمغبة ما قد يحدث لو رآني أحد.

نظرت إليه عن قرب، تذكرت صوتها وهي تسألني عن خضرة عينيها التي كنت أتمنى لبسهما، تذكرت صندوقها الخشبي، وفجأة باغتتني نظرة عينيها المخيفة، فانتفضت مفزوعة، ورميت العقد من يدي، فوقع خلف الطاولة.

هربت من الغرفة مذعورة، و كأن عيني خضرا تلاحقني، دخلت إلى غرفتي و أنا ألهث، وحين هدأت قليلاً سمعت العمّة وليلى وقد عادتا من السوق.

تمالكت نفسي، وذهبت إلى العمّة لأحمل عنها أثقال مشترياتها، بينما صعدت ليلى إلى الغرفة لتضع الطفل النائم من على كتفها.

سألتني العمّة وقد لاحظت اختلاجي وهي تناولني أكياس مشترياتها:

ـ هل نظفت غرفة خالد وليلى؟

لم أستطع الإجابة فأنا لم أتم التنظيف، وحين أتت العمة رأتني أخرج من غرفتي، فلا بد أن تتساءل لماذا عدت إلى غرفتي ما دمت لم أتم التنظيف!

ازداد ارتباكي، ولكن لحسن حظي أن ليلى لا تفهم في

النظافـة كثيرًا فبمجرد أن رأت السـرير مرتبًا ظنت أنني قد أتممت تنظيفي، ولم أنتبه إلّا حين سـمعتها تتكلم من خلفي تقول للعمة:

ـ لقد نظفت الغرفة، ولكنها نست المكنسة هناك.

فأومـأت برأسـي أؤكد علـى كلامها، و نظـرات العمة تكاد تفترسني.

اتجهت إلى الغرفة لأحضر المكنسة بأمر من العمة، كنت خائفـة مما واجهته هناك، كأن عيـون خضرا على الطاولة، أخذت المكنسة، وعدت سريعًا إلى المطبخ.

مرت الأيام واقترب وقت رحيل خالد وأسـرته، ولكن قبل سفرهم بيومين لاحظت ارتباكًا بين أهل الدار، وشراسة غير مبـررة من العمّة وليلـى، وبعد الإفطار أمرتني العمّة مباشـرة بالذهـاب إلـى المطبخ لأنظـف الأطباق، ومن ثـم توجهتا هي وليلـى إلى غرفتي ينبشـانها، رأيتهما فذهبت مسـرعة إليهما أتساءل ما الذي يجري فواجهتني ليلى وهي تقول:

ـ أين العقد؟ لقد سرقتِ العقد.

فوجئت من اتهامي بشيء كهذا، فوجهت نظري إلى العمّة التجئ إليها، ولكنها كانت تنظر إليّ بلؤم وهي تقول:

ـ جئت بك من الشارع، وهذا جزائي! تسرقين ابني وزوجته!.
أين خبأته؟ اعترفي يا سارقة.

صدمـت مـن موقفها واتهامهـا ، فبرغم قسـاوتها معي إلّا أننـي كنت أكـنّ لها حبًا في داخلي لِمَا لامسـته من سـخاء عطائها معي.

كنت أظن أنها أكثر الناس معرفة بي فمن غيرها رباني. كنـت أظـن أنها تشـعر بامتناني نحوهـا وبمحبتـي الصادقة وعطائي المحب الدائم لها وللعم ناجي، ولكل من له صلة بهما.

جثوت على ركبتي بائسة أتضرع، أطلب منهما التريث في الحكم، فلست سارقة كما يصفون. فمهما يكن ذاك العقد لن يجعلني أمدّ يدي على من يحميني في بيته.

لم تجد العمّة وليلى شيئًا في أغراضي وحينما رأيا إنكاري المستميت، تنفست العمّة بتهكم وقالت لليلى:

«سأطرد هذه الحثالة إلى الشارع ..».

كنـت أظن أنّي أعرف الخـوف، وكنت أرى أن له أوجهًا مختلفـة، وأسـوأ وجه له هـو الخوف عن معرفـة. فصحيح أن كل مـا نجهلـه مخيف، لكـن يظل الأمل بجهلـك به، نافذة للهروب منه.

أمّـا الخوف من شـيء تدرك أنه يسـتحق خوفـك، ذاك هو الأسـوأ، فستشـعر بـه كأن أوصال صـدرك الداخلية تتمدد وتشـتد ويـزداد طولها، وأنـت لا تملك لها مسـاحة تكفيها، فتقاوم انتصابها داخل جسدك الذي تعرف أنه لن يسعها.

لـم أصدق جدية العمـة لحظتها ، وظننت أنها تهددني فقط لتذلني أمام ليلى، فخطر على بالي العم ناجي، وتنبهت أنه لابد له من سماعه لتهديد العمة، فغرفته التي هو فيها ليست ببعيدة.

ظننت أنه سيصرخ معاتبًا لها ، سيأتي مدافعًا عنّي، لكنه لم يأتِ.

ترى ما قيمة هذا العقد حتى يكون مقايضًا لي؟ لقد رأيت مع سماح والعمة ما هو أجمل منه، فلماذا يكون هذا أغلى منّي أنا التي أخدمهم وأرعاهم. ألأنه كان لدى خضرا ، أم لأنه الآن مع خالد؟! وهل هو نفس العقد الذي بسببه هربت إلى الشارع؟ تبًا لعقد ما إن اقتربت منه رماني إلى الشارع ...

لم تدع لي العمة مزيدًا من الوقت للتفكير. تقدمت نحوي تسـحبني من ردائي إلى جهة البـاب، فزعت وتذكرت فزعي حينما لمست العقد وتذكرت أني أسقطته من على الطاولة.

طلبـت منهما البحث جيدًا في الغرفة او ليعطيانني فرصة للبحث خلف الطاولة والسـرير، فـالأولاد دومًا يدخلون غرفة والدتهم وقد يعبثون بأشيائها وهم يلعبون هناك.

نظـرت العمة إلى ليلـى واومأت لها كي توافقها لإعطائي الفرصة.

اصطحبتانــي إلــى الغرفــة ، طلبــت منهمــا البحــث خلــف الطاولــة ، بعد أن زحزحتها إلــى الأمام وفعلاً تم ذلك ووجدانه

خلف الطاولة.

ظننت أن شعور الذنب سيبدو على ملامحهن، أن كلمة عذرًا ستكون من حقي، حتى وإن قيلت بعدم اكتراث، أردت فقط أن أرى نفسي لديهنّ كريمة كما كنت أظن، لكني اكتشفت أنّي لست موجودة أبدًا حتى وإن حملت قرص الشمس بيدي، وكأن عيونهن ثقبًا أسود.

مرّ ذلك اليوم، كأن شيئًا لم يكن، قلوبهن كما هيّ، طلباتهن، احتياجاتهن، كل شيء كما هو ما عدا قلبي المكسور، وشعوري بالذلّ، والقهر، والهوان.

لم أكن سعيدة بإيجاد العقد، ولا بتبرئتي، بل كنت حزينة لرخصي لديهما، ولظنهما السيئ بي، حمدت اللّه أن العم ناجي لم يكن له ضلع في كل ما حصل، فقد أستطيع تحمل صدمتي من العمة، ولكني لست مستعدة لتحمل أمر كهذا من العم ناجي.

الحزن ثقلٌ يجعل جسمك وفكرك بطيء الحركة، واهن الخطى، كنت كالمريضة؛ وما كنت حقًا كذلك. أريد أن أفضي بهمي وحزني لأحد يخفف ثقل قلبي في صدري، ولكن لمن؟ فليس لي في الدنيا من يتقبل شكواي إلا اللّه. فتوجهت إليه، أسبحه وأشكو إليه.

مكثت في غرفتي لأطول وقت ممكن كي يجبر خاطري،

ويزيـح همّـي، تمنيت لو أني التزمت بدروس المسـجد وقراءة القرآن، لكنت الآن حفظت آيات أسلّي بها روحي المتعبة.

أكثرت من تلك الخلوات، حتى أن العم ناجي حينما كان يسـأل عنّي وتخبـره العمة أنني في غرفتي أصلّي، يستحسـن فعلـي ويثني عليّ، مما جعلنـي أطمع بأن أطلب منه أن يعلمني القراءة، ويا ليتني لم أفعل.

لم تكن المشكلة في العم ناجي بل بردة فعل العمة التي كادت أن تطيح بي أرضًا لمجرد الطلب.

ففي ليلة شـتوية قارصـة كنت أجلس مع العـم والعمة في غرفة المعيشة نشاهد التلفاز ننتظر حلقة من مسلسل السهرة. ومـع أننـي كنت أرتـدي طبقتين مـن الملابـس، إلّا أن البرد استطاع أن يدخل من بين جوانبي.

كان العم يجلس في رأس الغرفة متكئًا بظهره على الوسائد الملبسـة بقماش أبيض من الدانتيل الأبيـض، وهو مادٌ رجليه ومغطيهما بمفرش بني صغير وبين يديه جهاز الراديو تسترسل منه آيات قرآنية، يكرّرها مع القارئ، والعمة بجواره مازالت تلبـس ثوب الصـلاة المنقوش بـورود زرقاء صغيـرة، وتلتحف بوشاح أزرق داكن من الصوف صنعته بيديها.

ضـوء المصباح الأبيـض الكبير يملأ الغرفـة، العمة تتلو التسـابيح وهي تبرم حبات المسـبحة بأطراف أصابعها، حبة

تنتظر على ظهر السبابة وأخرى قد جاء دورها لتمضي مع الإبهام، وأنا معهم في أسفل الغرفة أجلس أمام التلفاز أشاهده بدون صوت، المذيع يقرأ الأخبار من ورقة أمامه.

كانت عيناه تارة على الورقة وتارة نحونا، والعم يتلو مع القارئ، وأنا كالمسبحة التي بيد العمة، قلبي تفتره حبة إثر حبه، كلما انتهت من الأولى أنتهي إلى قراري بسؤالهما، فتمسك الأخرى فأعود عنه، حتى برمتها ثلاث وعشرين مرّة، رفعت يديها لتصلح غطاء رأسها، والعم يتلو بصوته الشجي مصاحبًا لصوت القارئ في الإذاعة :

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾

فتحت فمي لأتكلم، نظرت العمة نحوي تتلقى ما سأقول، ترددت ثم قلت بصوت خفيض:

«هل تريدون قهوة؟».

فاستحسنت ذلك مني، نزلتُ وأحضرتها، وما أن صببتها وارتفعت رائحة الزنجبيل، حتى أكمل العم تلاوته، وأغلق الجهاز ليضعه على وسادة بجواره، ومد يده لأناوله الفنجان، وما أن رفعه إليه سألته:

«كيف أتعلم القراءة؟».

كانت العمة قد أحاطت الفنجان بكفها لكنه ما يزال على الطبق، وما أن سمعت ماقلت حتى ردته وضربته بظهر أصابعها،

وأنا أنظر، ليسقط وتتسكب القهوة منه، ونهرتني بعدها لأن القهوة ساخنة أكثر مما يجب، لم تكن لدي الجرأة لأرى وجهيهما، ولكني دنوت برأسي واحتويت القهوة المسكوبة بعينيّ، وحمدت اللّه أنني لم أجرؤ على النظر إليهما.

نزلت لأحضر منشفة من المطبخ كما أمرتني، وعدت مسرعة لأمسح ما انسكب منها، سمعت العمة وأنا في الدرج تحذر العم وتستحلفه، كان ساكتًا لا يتكلم، دخلت، ومسحت القهوة، ثم قلت وكلماتي متحجرة تتساقط كانهيار صخري من حنجرتي:

«هل أستطيع تعلم القراءة ياعم؟».

انتفضت العمة، ولولا وجود العم ناجي الذي جعلها تتمالك اعصابها لضربتني.

لم أفهم سبب ثورتها، ولكن بعد أن عرفت أن العمّة نفسها لا تقرأ فهمت سبب ثورتها، ثم لم أطلب ذلك الطلب مرة أخرى واحتفظت به حلمًا صغيرًا أرعاه كي يكبر، وأعيش في الدنيا لتحقيقه.

لم تكن خلواتي مع اللّه طويلة بعد ذلك اليوم، فكلما كنت أتوضأ وأدخل إلى غرفتي، لا تمنحني العمّة أكثر من عشرة دقائق لتناديني لأنشغل بعمل لا داع له. كانت توبخني و تقول :

«تتهربين من عملك بالصلاة؛ سوف يعاقبك اللّه على ذلك».

مرت الأعوام وصرت فتاة في الرابعة عشرة من العمر اتخفّى تحت أغطيتي, أحاول ستر كل ما يجعل غيرة العمّة تنفذ إلي.

شعري الكثيف الناعم الذي لا يشبه شعر العمّة ولا شعر سماح، حجبته عن كل عين، صدري المتكور العنيد الذي يرفض المكوث في حجرته الضيقة، قيدته بمحارمي القديمة، وربطت عليه أوشحتي، وجهي المختبئ طوال الوقت تحت نصف لثامي الدائم في البيت. كل شيء في جسمي في مكانه لعدم لفت انتباه العمّة، عدا عينيّ فكلما رأتهما تقول:

«حمدًا للّه، عمك ناجي أعمى لا يرى هذه العيون الباهتة، وإلا لقال إنني لا أطعمك، لا يعلم أن نصف سمن ودقيق البيت في أحشائك».

وتلك حقيقة، فقد كانت العمّة تعزّ الخبز كثيرًا، ولها شغف دائم به وبشغله، فالكعك والمخبوزات التي تصنعها لا تحاكيها امرأة في طعمهم وزينتهم، ومع ذلك كان العم ناجي لا يستطيع الأكل منهم، بسبب مرض السكري الذي حل به قبل أن آتي إليهم.

أحيانا كنت أظن أن سبب قدومي إلى الدار وسبب صبر العمّة علّي، هو أنني آكل ما تصنعه، مما يدع لها المجال لممارسة هوايتها فتصنع أكثر. فمهما أهدت للجيران منه،

إلا أنها كانت تحب أن تراني وأنا التهم كعكها اللذيذ بنهّم، فقد كنت حجة لا بأس بها، أمام العم على الأقل.

في ذلك العام مرضت العمّة، وبدأت صحتها بالتدهور.

أوصى الطبيب لها بحمية خاصة، ومنع عنها كل ما تحب؛ مما جعلها حزينة وبائسة، لكن مع ذلك كانت تستمتع بدور المريضة، فتكون محط اهتمام الجيران والأصحاب، المواظبين على زيارتها للاطمئنان على صحتها.

حرصنا أنا و سماح على إرضائها أمام ضيوفها، عن طريق المبالغة في العناية بها أمامهم بالذات، ولكن برغم اهتمامنا المبالغ والمتواصل بكل تفاصيل علاجها، إلا أنها كانت تزداد مرضًا يوماً بعد يوم.

كنت أرى العمّة تنطفئ وكنت حزينة لذلك، لأني أحبها رغم قساوتها عليّ، فهيَّ لي كالأم التي لم أحظَ بها.

ستة أشهر فقط حتى توفت العمّة، وانطفأ الدار.

بكى العم ناجي كثيرًا، بكى كالطفل الذي تركته أمه، بكى مثلي وأكثر.

أتت النساء من كل حدب وصوب ليعزوا سماح، وكان البعض يسأل عن خالد وزوجته فتجيبهم سماح بأنهما في بلد لا يستطيعان الخروج منها لمدة خمس سنوات. لكنه فاجأنا بقدومه في ثالث أيام العزاء، كان لقاء باكيًا. حين دق خالد

الباب فتحت له غير مصدقة وجوده أمامي، جريت أخبر سماح التـي كانت تغير ملابس بناتها في غرفتها, صعد خالد خلفي وما أن رأته سـماح على الدرج حتى انهارت بالبكاء، وجلست تبكـي وتنوح، ضمها خالد بين ذراعيه وهو يحاول أن يتمالك نفسـه، ثم أخذ بيدها ودخلا إلى غرفتـه وأغلقا الباب إلى أن جاء العمّ فدخل إليهما، ولم يخرجا الا بعد ساعة، كنت حينها مع الطفلتين ألاعبهما وأهتم بهما.

حمدت اللّه أن ليلى والأولاد لم يأتوا معه، فقد فهمت أن حالته المادية في تدهور، وأنه لا يستطيع دفع تكلفة قدومهم معه.

وبعد مرور خمسة أيام من قدومه فتح خالد لسماح موضوع بيع الأرض، وأقنعها أن الأرض التي تركتها والدتهما لا تؤتي أجرًا يسـتحق الإبقاء عليها، وأنه إذا تاجر بقيمتها سـوف تدر لهما ربحًا أكثر.

ترددت سماح قليلاً، لعلمها بأن بيع الأرض لا يوافق مشيئة العم ناجي، ولكنها حينما رأت إصرار خالد، وافقت على أن تمهد الخبر لوالدهما بنفسها.

فعلاً لم يكن العم راضيًا، ولأن الأرض لم تكن مسـجلةً باسـمه آنذاك وإنما باسـم العمة_ فكما علمـت أنها كانت إحـدى هداياه لها_ لذلك وافق، ولكـن على مضض. وبيعت الأرض وأخذ خالد المال ورحل في عاشر أيام الدفن.

مكثت سماح معنا بعد سفر خالد أسبوعين وبعدها لاحظت عليها تحيرًا مّا لم أفهمه، فقد كانت و كأنها تودّ إخباري بشيء وتتردد في قوله، وهكذا إلى أن جاء اليوم الذي أتت فيه أم زوجها ونادت عليّ، ثم أمرتني بالجلوس.

كانت أمّ زوج سماح شديدة جدًا ، لها ملامح قاسية تبرز من وجهها النحيف الذي لا لون فيه، ويزيد من كآبة منظرها ملابسها المعتمة المعلقة على قامتها الأقرب إلى الرجال، علاوة على ذلك كانت تستعمل عصابة سوداء تربط بها رأسها منذ خمسة عشر عامًا حدادًا على زوجها.

تساءلت بيني وبين نفسي عن سبب ندائها لي وطلبها محادثتي، فقد عهدتها متكبرة لا تنظر نحوي، تظن أنها ذات شرف أكثر من الجميع، فدومًا ما تجعل العمة وسماح يعتقدان أن عائلتهن أقل نسبًا وشرفا منها ومن عائلتها ، كانت تقبض بهذه الفكرة على عقولهما لتحكم السيطرة عليهما ، و برغم شكوى سماح الدائمة من حياتها معها ، إلّا أنها كانت تخشاها هي والعمة التي كانت دوماً تعظمها؛ وتجبر سماح على طاعتها لإثبات ولائها لها ، برغم أن تلك المرأة لم تبدِ رضاها عنهما أبدًا ولا عن غيرهما.

جلست أمامها كما أمرتني، وأنا متحيرة متوجسة منها ومن عينيّ سماح المختبئة تحت جفنيها.

نَظرت مباشرة إلى عينيّ وقالت بصرامة :

«تعلمين أن الدار الآن قد خلت من صاحبتها».

خفضت نظري حينما رأيت حدة عينيها وقلت :

«نعم، رحمها اللّه».

قاطعتني وقالت :

«وصارت الدار الآن يسكنها رجل وحيد. لذلك لا يجب أن تظلّي فيها، فسماح ستعود لدار زوجها، وسترعى أباها بين الفينة والأخرى. لذلك وجودك ليس مرغوب به».

في تلك اللحظة شعرت بأحشائي تزداد ثقلاً وتهبط فجأة إلى الأرض، وجهت نظري إلى سماح ورأيت جفنيها المغلقين يعكسان عينيّ خضرا، لم أفزع من وحشتهما، إنهما قدري الذي يجب أن أواجهه وأدفعه بعيدًا، لكي لا أرتمي إلى الشارع بعد أن رُبيت على الخوف منه.

توجهت نحو سماح، أمسكت بكتفيها وهززتهما لأستجدي عاطفتها، وجعلتها تنظر إليّ مرغمة، وسألتها وصوتي لا يخرج من جوفي:

«وأين سأذهب يا سماح؟».

لم تجبني ... فكررت السؤال بصوت أعلى، فشدتني أم زوجها من ظهري وأبعدتني عنها وقالت:

«لا شأن لسماح بك. المكان الذي جئت منه ارحلي إليه».

لم أستطع الوقوف، جثوت على الأرض أتوسل أن لا يرمياني إلى الشارع لكن دونما فائدة.

عدت إلى غرفتي، أحتاج أن أبكي فحاولت، ولكني فشلت، صوتي لم يكن معي، يبدو أنني استهلكته في البكاء على العمة، حاولت استحضاره، ولكني لم أستطع، كأن جسدي يرفض إعطائي حقي في البكاء على نفسي.

جمعت أشيائي وأنا أنوح بصوت منخفض، تذكرت نواح خضرا، وتمنيت لو أنني لم أسمّ نفسي بها.

فجأةً سمعت عصا العم ناجي تطرق بقوة على بابي والعم يناديني والغضب يملأ صوته :

ـ خضرا، أخرجي. لا تغتمّي يا ابنتي، إلبسي ستارتك وتعالي معي.

ظننت أنه سيأخذني إلى دار أناس يعرفهم، ولكن فهمت بعد ذلك، أنه سبق وحاول، فطلب من سماح وأم زوجها أخذي لأعمل لديهن، ولكنهن رفضن بحجة أنني من الشارع.

خرجنا من الدار والعم ناجي يمشي بعزم وقوة، وكأنه يبصر فهو يحفظ الطريق جيدًا إلى الجامع.

وصلنا فظننت أنه سيتركني في نفس المكان الذي أخذني

منه، لكنه حاول طمأنتي، ثم طلب مني الدخول والانتظار خلف العمود، حيثما اعتدت الجلوس وأنا صغيرة، ومن ثم ذهب ليتحدث مع إمام الجامع.

ملأني الجامع بالطمأنينة التي احتجتها؛ فجلست في موضعي القديم. كنت أتحسس ذكرياتي به وأقبّل بهوه بعينيّ، فوجدت أنه وإن كانت أبوابه مفتوحة على الشارع، إلّا أنه ما يزال الطيب الذي لا يتغير مهما تغير الداخلون والخارجون منه وإليه، فحتى وإن اختلفت نواياهم، إلّا أن أرواح محبيه باقية بين جنباته، وأنفاس القارئين وتهاليلهم تعطر جنباته الواسعة، حتى كأنّي أرى مناجاتهم لله تحفّ زخارفه، وتوشوش القلوب التي قست، فتخبرها عن اللين والرحمة.

هذا الجامع الرحيم جمع كل الناس برحمة الله، غنيهم والفقير، مجنونهم والعاقل، عالمهم والجاهل، وفيه نرى كل أجناس البشر، حتى أن الخبيث منهم رأيته هنا كصالح الدوهي، ورأيت كذلك العم ناجي.

نظرت نحو العم والحمد في قلبي، وانتبهت أنه كان يشير اليّ بالتقدم. ذهبت إليهما فتوجه نحوي إمام الجامع سائلاً عن موافقتي على الزواج من العم ناجي!

لـم أفهـم ماذا يعنـي فبدا ذلك علـى وجهي فقـال لي العم مطمئنًا :

«لكـي تمكثـي معـي في الـدار، لا بـد أن تكوني على ذمتي، ولن يتغير عليك شيء، إلى حين موتي على الأقل».

فوافقت في الحال، و رجعنا إلى الدار..

فتحت لنا سماح باب الدار وهي متفاجئة برجوعي مع أبيها الكفيف.

فقالت مستنكرة :

«مازالت معك ؟!».

ـ نعم، وستظلّ معي إلى أن أموت.

ـ ماذا تعني يا والدي؟

ـ يعني أنها في ذمتي الآن، ولا شأن لأحد في ذلك.

ـ تزوجتها ؟! ماذا سأقول لزوجي وأهل زوجي؟ والدي تزوج فتاة من الشارع!

ـ ليس لأحد الحق في سـؤالي. أنا رجل ضرير وأحتاج إلى زوجة، ولن ترضى بي سوى هذه المسكينة. ارجعي إلى زوجك وأهلـه وأخبريهم بذلـك، وإن منعوك عني فافعلـي، فلا أريد رؤيتك ثانيةً.

كـان الـعــم نـاجــي قـاسـيًا مع سـماح حاولت التوجـه إليها لاستعطافها ، فرمتني بما في يدها ، وأخذت أشياءها ، ورحلت.

لا شـك بـأن البيـت انطفـأ بعـد العمّـة ولكنه لـم يختلف كثيرًا ، فقد حاولت إبقاء كل شيء كما كان، عدا زيارات الجارات اللواتي كنّ قد اكثرن منها في الفترة الأخيرة بسبب مـرض العمّة ، فصرت فـي الدار وحدي ليس معي سـوى العم ناجي الكفيف، وبعض حمامات اعتدن الوقوف أمام غرفتي ليلتقطـن الحبـوب التي اعتـاد العم رميها إليهـن كل صباح، ولأن لا زائرات في البيت سواهن، ولا حتى سماح التي لا أتوقع حضورها ، سمحت لنفسي بالتخفف من لبسي المحتشم قليلا.

كان العـم ناجي في العقد السـابع من العمر ورغم مرض السـكري، وضرر بصره، إلا أنـه كان يبدو صحيح البدن، يخـرج في كل فـرض صلاة ويجلب احتياجـات الدار كاملة كل يوم بيومه، و بعد مرور شهرين على وفاة العمة، خرج العم لصلاة الظهر ولم يعد.

انتظرت عودته حتى صلاة العصر دونما خبر، ازداد قلقي فذهبت لأستفسر عنه، فعرفت أنه فقد وعيه في الجامع ظهرًا ونقلوه إلى المستشفى.

ذهبـت مسـرعة بعـد أن عرفت مكانه دخلـت أبحث عنه

هناك، ولا علم لي كيف أفعل. فسألت كل من قابلت، حتى أرشدوني أخيـرًا إليه، وجدت سـماح تعتني بـه، تقدمت إلى سريره وأنا أبكي، فطردتني سماح من الغرفة.

أردت الانتظار أمام الغرفة، مُنعت من ذلك. لم أشأ الرجوع إلى الدار فالدار ليست دارًا بدون العم ناجي. جلست تحت شجرة أمـام مبنى المستشـفى حتى اقترب الفجر، ألفّ رأسـي تحت ذراعـي وأخفي نحيبي. نمت دون أن أشـعر. عصافير الشـجرة أيقظتني، أحسست بأحد يقترب، رفعت رأسي قليلاً، كانت امرأة ترتدي وشاحًا بلون ترابي يشبه لون عصافير الشجرة.

جَلست بالقرب منّي، سألتني برفق:

«ما اسمك؟».

أجبتها بيأس:

_ لست أدري.

لم أشـأ أن أعيد اسم خضرا على لساني مرة أخرى، أردت أن أتنصّـل منها، فقد أورثتني اسـمها وحظهـا العاثر الذي لم يكفه جسـدها المطعون. هي لم تعطني شـيئًا يخصّني. حتى اسـمي وصلتي بها، أنا حقًا لا أعرفها، فهل هي أمي، أختي؟ أم لا تربطنـي بها صلـة قربى؟ ومن يدري فقد تكون وجدتني ثم عطفت عليّ كما فعل العم ناجي.

سألتني المرأة الجالسة بقربي مرّة أخرى بصوت أقوى:

«ألّا تعرفين اسمك؟».

أجبتها بهدوء :

«لا».

سألتني :

«ولماذا ينادونك خضرا؟».

تفاجأت من معرفتها بذلك، واستغربت سؤالها في الوقت نفسه. أغمضت عينيّ ذارفةً آخر دمعةً لم تشأ السقوط، ثم حملت رأسي نحوها ، وجهت نظري باستغراب إليها ، نظرت إلى المرأة المتهالكة القاعدة قبالي، انتبهت أن رأسها مقابل رأسي، وعيناها تنظران إلي، ويا للعجب فهي تنظر نحوي بعيني خضرا! تماماً كخضرة عيني خضرا.

حدقت بها كثيرًا ، وقد توقف كل شيء من حولي، تجمدت للحظة حين أدركت أن العينين اللتين أنظر فيهما هما عينا خضرا.

تنبهت أنني قد أكون في حلم، ربما أن هذا كابوس من كوابيسي الدائمة.

أمعنت النظر في تلك التي تلبس عينَي خضرا ، وكدت أن أسألها ، من أين اشترت عيون خضرا؟

نظرت إليهما كما كنت أنظر في طفولتي، ورأيتني

اثنتيـن، فـي كل عيـن مـن عيون خضـرا ، لكنني متشـحة بأغطيتـي الباهتـه، فلم تعد عينا خضرا تلمعـان. ظلّت المرأة تنظر إلي، تتأملني و تراقب ردة فعلي بحذر، ثم قالت :

«اسمك نور».

أجبت :

«من قال ذلك؟».

_ أنا من أسماكِ.

_ وكيف تعرفينني؟

_ أعرفك، تتبعتك لسنين، وأعرف مَن تكونين.

استقمت وابتعدت مسافة عنها وقلت:

«مَن أنتِ؟؟ بحق اللّه!».

كنت خائفة من إجابتها مع أنّي أريد سماعها، فقالت:

«خضرا».

رددت عليها بغضب و حنق معًا :

«أنا خضرا».

_ لا، أنت نور

صرخت أسألها بصوت مستنكر ورافض:

«من تكونين؟ أنت لست خضرا؟».

ـ أنا خضرا ، أنا أمك.

هزتني إجابتها فقلت بصوت أقرب للاستعطاف:

«خضرا ماتت قتلها أحدهم».

أجابتني بصوت ناعم :

«أنا لم أمت، أسعفوني إلى هذه المستشفى، واستشفيت بها بعد أشهر».

لم أستطع الصمود ، جثوت على ركبتيّ غير مصدقة ما يحصل، فكرت أن الكابوس هذا قد طال أكثر مما ينبغي، ليتنا على الأقل نستطيع التحكم بكوابيسنا ، قررت أن أعاتبها لكي ينتهي فقلت:

«و تركتني في الشارع؟».

أجابت و هي تنظر بعمق في عينيّ :

«لم أكن أعلم أين كنت، وحين استجمعت قواي بحثت عنك، وعرفت مكانك في الجامع، واهتمام الناس بك، ففضلت استبقائك في الجامع على العيش معي في الشارع، وحينما حصلت على عمل هنا في هذا المستشفى، ذهبت أبحث عنك، وقيل لي أنك في بيت ناجي المسايري، ففضلت بقاءك لديهم».

سمعتها تروي قصتها فانتصبت أتلفت حولي باحثةً عن

مهرب.

أود الهروب من كابوسي المستعصي على الانتهاء. الهروب مـن خضـرا مـرّة أخـرى، ولكني عجـزت، فأحسسـت أنها الحقيقة التي لا هروب منها.

تجمـدت بلا حراك، أتذكر شـبحها الـذي لاحقني طيلة عمري، وشـقائي من خوفي كل تلك السـنين. نظرت نحوها وقد اتجهت إلى لتضمني بذراعيها ، وأنا متسمرة في مكاني، شممت عبقها. نعم، إنها خضرا ...

أغمي علي، ولم أشعر بشيء بعدها ، إلا وأنا مستلقيةً على أحد سرر المستشفى.

أفقـت وعينا خضرا مازالتا أمامـي تنظران نحوي بحزن، وأسى وقالت:

ناجي المسايري توفّي.

انهمرت الدموع من عينيّ. ولم أعد أسمع ما كانت تقوله بعد ذلك، أحسست بدموع تحرقني. مددت يدي الواهنة أمسحها ، ونهضت أبحث عنه.

أخبرونـي أن أهلـه أخذوه لإتمام مراسـم الدفن. ذهبت إلى الـدار برفقـة خضرا. وصلت والـدار تعج بالمعزيات، وسـماح تنـوح وتبكـي في رأس الغرفة، شـعرت بقلبي يـذوي وينهمر على صدري، فذهبت إليها لأخفف عنها ، وأواسي نفسي بها.

رأتني أم زوجها وأشـارت لسـماح، توجهت سـماح بنظرتها إليها ودموعها تبلل وشاحها ، ثم نظرتا إليّ، هزت سماح رأسها لها وقامت وهي تشير لي بأن أتبعها.

أخذتني إلى غرفتي بعد أن طلبت أن لا يتبعها أحد. فوجئت بأنها قد حزمت كل أمتعتي وقالت بصوت متهدج:

«ارجوكِ اخرجي من الدار ويكفي إلى هنا».

تقدمت خضرا ووجهت كلامها إلى سماح قائله بحزم:

«لن تخرج ولها في الدار مثلما لك».

أجابتها سماح:

«ليس لها أي شيء، فالزواج ليس مكتمل الشروط».

أجابت خضرا باستغراب :

«زواج! أي زواج؟».

ـ ولسـت تدريـن أنها تزوجته فعلا فلـمَ تقولي إن لها ما ليّ في الدار؟!

ـ لأنها ابنة خالد.

ـ ماذا ؟! هل جننت يا امرأة، و من تَوهمَ ذلك؟

نعم ، حقًا خضرا جنّت، وذلك ما سأكتشفه لاحقاً، فلم أكـن أعرف حينهـا أنها تخفي أكثر من ذلـك. توجهت إليها لأدفعها من أمام سماح، ولكن خضرا رفعت يديّ عنها ورفعت

صوتها وقالت بحزم:

«نعم، هي ابنة خالد وأنا أمها، واستطيع إثبات ذلك، وإن أردتِ فضائحًا فاسمحي لي الآن اعلام ضيوفك بذلك».

بهتت سماح لثوان ثم ضحكت بعصبية ممزوجة بالسخرية. شددت خضرا باتجاهي، لعلمي بسماح وبفقدانها السيطرة على تصرفاتها إن أصابتها العصبية.

كان ولائي للدار ولسمعته، أكبر من حاجتي لسقفه، فطلبت من خضرا السكوت والخروج معي، رضخت لي بصعوبة، وخرجنا بعد أن أخذت ما استطعت من أشيائي.

كنا نمشي بلا هداية، هي تظن أنني أقودها، وأنا أظن أنها هي من تقودني. نحن في الحقيقة لا نعرف أين سنذهب، كنا ندوس الأرض بأقدام عصبية حنقة وساخطة من الحياة الظالمة والمتجبرة، إلا أنها الحقيقة التي لابد أن تُعاش حتى بواقعها المهترئ.

انتشلت خضرا التي في ذاكرتي ونظرت للتي بجواري، هذه التي أتت في خضم حزني واحتياجي، لتخبرني بكل ما عجزت ويئست عن معرفته سابقًا فحاولت نسيانه.

اسمي، والدتي، والآن والدي ... مهلًا لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا ما الذي يجري ليحصل لي كل هذا.

بدأت أتساءل، من هي هذه المرأة التي لم يعد فيها من

خضرا سوى لون عينيها. استرقت النظر اليها وهي تمشي بجواري بعصبية. نعم، أذكر شيئًا من هذه العصبية ووجهها الملثم، عيناها هيّ عيناها حتى وإن لم تبرق، لقد تغيرت كثيرًا، لم تعد كما كانت.

نظراتها تروح وتذهب في كل اتجاه، حتى أن يديها أصبحتا قاحلتين، كقطعة أرض أصابها العطش.

وبعد تساؤلي انتبهت لطول مسيرتنا فضحكت، نظرت إليّ خضرا بتعجب وقالت:

«علام تضحكين؟».

أجبتها وأنا مازلت أضحك:

«علينا، كلانا لا نعلم أين نذهب».

توقفت خضرا فتوقفت بدوري لأواجهها. انتبهت ان خضرا صارت أقصر منّي.

جسدها تهالك كثيرًا، هي لا تكبرني كثيرًا لذلك كنت أظن أنها أختي، فلماذا تبدو الآن أكبر وكأنها جدتي، عجيب أمر هذا الشارع كيف يسخط العمر ويسرقه!

قالت خضرا :

«تظنين أني أكذب؟».

_ تقصدين، أن خالداً والدي؟

ـ نعم.

ـ لابد أنك فقدت عقلك، هذا يعني أنني تزوجت من جدّي.

ـ أو لم تقل سماح أنه غير كامل الأركان؟

سـكتّ ولم أجب، فانتفضت خضرا وأمسـكت بذراعي وقالت:

«أخبريني، أولم يكن ناقص الأركان؟».

ـ بلى، صحيح لم يمسسني العم ناجي.

ـ إذًا لمـاذا تعتقدين أن رجلًا ـ مهما كان عجوزًا ـ يتزوج من شابة ولا يسمح لنفسه حتى بلمسها؟

ـ توقفي، أنت لا تعرفين العم ناجي، هو أنبل من رأيت.

ـ أنـت التي يجب أن تتوقف عن الغباء، ناجي كان يعرف كل شيء ولم يفعل لك شيئًا سوى أنه أخفى حقيقتك، ورباك جاريةً عندهم.

جلست على أقرب رصيف أضع كفيّ على رأسي وقلت:

«لا أريـد أن أسـمع أكثـر، أرجوك يكفي، لقـد دمرتِ كل شيء».

ـ أنا من دمّر كل شيء! أردت لك حياة أفضل، وتركتك تعيشين في كنف جديك وأنا أعيش وحيدة. لم أكن أتخيل أن ناجي سـوف يظلمك إلى هذا الحدّ حتى بعد أن توسـلت إليه،

وأنا جريحة أنزف في المستشفى، جعلته يظن أنني مت لكي يرأف بك، لكنه استغل ذلك وربـاك كجارية، ما إن يموت حتى يرميك أبناؤه في الشارع. سأفضحه، سأعاقبه، وأعاقب بنيه كما ظلموك.

ـ لا، لا يا خضرا، لا أريد ذلك.

ـ وترتمين في الشـارع ؟! أهذا ما تريدينـه ؟! أن تكوني خضرا أخرى؟!

ـ ليست إرادتي، فأنا لا أعرف في نفسي سوى خضرا.

ـ وها قد أتيت لآخذ منك خضرا بعيدًا يا نور، وأنبهك لأن تكوني أنت.

وأكملت تحكي قصتها :

«كنت وحيدة أبي، كنا نعيش في قرية من قرى جبال ريمه قبـل أن تتوفي أمي، لم يسـتطع والدي الحيـاة بمفرده، حاول الـزواج لكي يأتي بمن تسـاعده على تحمل أعبـاء الحياة في القرية، لكنه رُفض مرات عديدة بحجة أنه من أسرة أقل مرتبة من الجميع، فعزم أمره ورحلنا من قرية إلى أخرى إلى أن جئنا إلى صنعاء، بحثًا عن عمل، فاشتغل عامل بناء باليومية. كنا نعيش في غرفة صغيرة استأجرها والدي في بناء لم يكتمل، وفي يوم من الأيام مات أبي، سـقطت كتلة إسـمنتية عليه من الطابق الثالث، توفي والدي مباشرة وتركني وحيدة في الثانية

عشرة من عمري، تداولني العمال، كل يوم أبيت لدى أحدهم، لأنال حصتي اليومية من الأكل والسكن.

وسكتت، لم تكمل، وكأنها لم تستطع ادراج ما بذاكرتها على حديثها، انتظرت بدوري إلى أن أكملت حديثها وقد تبددت على وجهها ملامح الأسى، واستبدلتها بملامح مضطربة ممزوجة لا أستطيع توصيفها وقالت:

«وفي أحد الأيام قابلت خالداً، كان أكبر مني بأربعة أعوام كما قال لي، وأنا كنت في الرابعة عشرة من عمري، كنت في أجمل سني العمر وأبهاها، وهو في عيني شاب مكتمل الرجولة. أحبني، وأحببته. وبعدها طلب من أبيه أن يوافق على زواجنا، فرفض أبوه بالطبع، فتزوجنا سرًا بورقة كتبناها، أنا وهو، وبعدها حملت بك.

لم يكن راضيًا بحملي، فهربت منه وأنجبتك بعيدًا عنه، وعشت معك في بيت صغير وأنا أتابعه وأسأل عنه، وعندما علمت بنيته في السفر خارج البلاد، تأكدت أنني لست سوى نزوة من نزواته، وأنني لم أكن من ضمن مخططاته، فاعتبرتك مسؤوليتي وحدي، عشت معك بطريقتي الوحيدة في العيش، طريقتي التي أعرفها.

وفي يوم من الأيام أدخلت شخصًا حقيرًا إلى منزلي، طلب مني أشياء حقيرة، فلم أستطع مجاراته فطعنني وسرق كل

ما معي، ومازلت أعاني من طعنته إلى اليوم.

استمعت لقصتها بحرص، وحينما سكتت سألتها :

«والعقد...؟».

تفاجأت من سؤالي وقالت :

«ماذا؟».

ـ العقد يا خضرا، ذلك العقد الأخضر، هل سرقه الرجل؟

ـ أما زلت تتذكرينه؟

ـ نعم.

هزت رأسها وقالت:

«كان معي، لم يسرقه، كنت أرتديه فهو هدية من خالد، وبعد الحادثة نقلت إلى المستشفى، فجاءت الشرطة تحقق معي فطلبت من أحدهم أن يصلني بخالد، لكنني فوجئت بناجي المسايري أتى بنفسه يسألني باستحقار وجبروت، عن سبب بحثي عن ابنه، فناولته العقد، وأخبرته أن لي ابنة من خالد، وجعلتك في ذمته، فأنكر ورمى العقد في وجهي ورفض سماع بقية القصة برغم توسلاتي، تركني ورحل شاتمًا غاضباً يدعو علي بالموت.

فكرت أن أدعك تحت رحمته، وأجعله يظن أنني مت حقًا وأوهمته بذلك، أرسلت العقد، وفعلاً بعد أن وصله الخبر

علمـت أنك كنت فـي الجامع تحت عينيه ، ولكني لم أتخيل أبداً أن ينكرك حتى بينه وبين نفســه. فأي جدّ حقير يكتب عقد زواج بينه وبين حفيدته.

لم أستطع تصديق حكاياتها فسألتها :

«وخالد؟ هل يعرف أن له ابنةً؟».

ـ أنا لم أخبره، فحين علمت برفضه للحمل، ادعيت أنني فقدتــه، ثــم هربت منه، ولم يســتطع الوصول إلــي. لا أظن أن الخسيس ناجي أخبره بوجودك.

فقلت مدافعةً عن العم :

«وما أدراك لعله أخبره».

أجابت وهي تهز كتفيها بلا مبالاة:

«لســت أدري، ولكن إن كان قد أخبره، فكيف يســمح خالد لسماح بطردك إلى الشارع؟».

طأطأت رأسي، ودافعت بيني وبين نفسي عن العم وقلت:

«كان مجبرًا».

لم يرضي هذا الجواب خضرا فقالت :

«نحن في الدنيا ، لســنا مجبرين، بــل إن كل منا في يديه الاختيار».

ـ تقولين إننا نختار بؤســنا وشــقاءنا! أنا لم أشأ أن أعيش

يتيمة محتاجة، بل وجدت نفسي في الشارع منذ طفولتي، فهل كان هذا اختياري؟!

نظرت نحوي طويلًا وكأنها تستحضر شيئًا من ذاكرتها، أو أنها لم تقتنع بقولي، لكنها حين رأت حالتي البائسة وانكساري، جلست معي على الرصيف رأفة بي تربت على ظهري وقالت:

«هيّا تعالي معي إلى منزلي».

لا أدري لماذا انتفضت حين سمعت ذلك! هل لأنني خفت من ذكرياتي القديمة في بيت خضرا، أم لرفضي الذهاب إلى دار ليست دار العم ناجي.

لاحظت خضرا وجومي واستنكاري وقالت:

«أيعيرك أن تذهبي معي؟! لك الحق يا عزيزتي، فما أنا سوى عاهرة».

ـ لا، لا تقولي ذلك. سأذهب معك فليس لي أحد سواك.

ذهبت مع خضرا وأنا خائفة، فبرغم أنها ملجأي الوحيد إلّا أنها ليست أماني الذي أنشده. ليس لذكراها المخيفة فقط، بل لأشياء أخرى.

وصلنا أخيرًا إلى باب بيت كان في منتصف شارع ترابي، بيت بطابق واحد، باب صغير ندخل منه إلى حجرة صغيرة،

علـى رأسـها بابٌ لغرفـة بنافذة واحدة خشـبها مدهون بدهان أزرق، و مغطاة بسـتارة بيضاء متهالكة، وفي طرف الحجرة التي كنت بها، يوجد باب خشبي متهالك لحمام صغير، بنافذة مكسورة مغطاة بكرتونة موضوعة على قضبانها الحديدية.

كانـت أرضية الحجرة إسـمنتية، لكن الغرفة مفروشـة بطبقة بلاستيك منقوشة بدوائر خضراء متداخلة، أمّا المطبخ أو كمـا يسـمى الديمة، فقد كانت جدرانه يغطيها السـواد بالكامل، و يتدلى من سقفه سلك متسخ ينتهي بمصباح أصفر ضعيف.

لـم يكـن البيت جيـدًا، ولكنه كان أفضـل بكثير من الشارع.

انتبهت خضرا لي وقالت:

«هـذا منزلك، واطمئني لا يأتينـي أحدٌ هنا. فبعد الحادثة لم أعد لما كنت عليه».

كان حقًـا كلامًـا مطمئنًا، ولكن كيـف للطمأنينة أن تسكن قلبي ممن كانت شبحي الدائم.

دخلـت إلى الغرفة، فرأيت روح خضـرا التي في ذاكرتي بيـن طيات الفرش، وألوان الوسـائد. لم تعـد لديها مرآة، ولا صندوق زينتها الخشبي.

التفت إليها و قد تجردت من أغطيتها، كانت مختلفة تماماً

عن ذكرايَ لها ، فأين شعرها الناعم الواصل إلى خاصرتها ، إذ لم أرى إلا شعيرات مذعورة قد اصطبغت بالبياض، أما جسدها الذي كان مغطى بأقمشة ثقيلة باهتة اللون فقد تساقطت كل عضلاته.

كانت خضرا تبدو وكأنها في الستين من عمرها ، كل شيء فيها تغير ، عدا لون عينيها ، فمازالت تلك الخضرة توحي بملامح نشأتها الأولى على جبال ريمة كما تقول.

أخرجت بيدها من بين الوسائد المكومة أسفل الغرفة منديلًا بنّيًا. مرسوم على أطرافه ورود حمراء صغيرة محاطة بأوراق خضراء قريب لونها للون عينيها ، ومحفوفة أطرافه بخيط ذهبي. كان المنديل قصيرًا لم يتجاوز رقبتها حين لبسته وهي تسترق النظر إليّ وكأنها أرادت اختبار افتتاني القديم بها ، فحين وضعته وقد زاد لون عينيها وضوحًا؛ نظرت نحوي نظرة سريعة وهي تربطه خلف رأسها ، ثم ابتسمت لي وتوجهت نحو المطبخ، لحقت بها لكي أعرض عليها مساعدتي.

كان للمطبخ نافذة صغيرة مرتفعة ، مكسور زجاج قمريتها ، فعوضته خضرا بخرقة قديمة. لون الجدران يزيد من عتمة المطبخ حتى بنور المصباح المتدلي من السقف، حتى أن خيطه الطويل لا يكاد يُميّز ، أمّا في زاوية المطبخ كان هنالك بناء إسمنتي لحوض أرضي على الطراز القديم

يسمى الساحل، ويوجد على ركنيه قدران مقلوبان اكتسيا بالسواد، أما في الزاوية الموازية للساحل، فتقف أنبوبة غاز يجاورها شعلة غاز بعين واحدة، عليها إبريق قهوة يبدو أنه كان أصفر لولا أنه اكتسى بكساء المطبخ الأسود. تجلس خضرا على كرسي بقوائم قصيرة وبالقرب منها كرتونان يحويان بقية أدوات المطبخ ومؤونته.

أخذَت خضرا الإبريق وملأته بالماء من الحنفية الموجودة أعلى الساحل، ووَضعته على موقد الغاز وأشعلته بعود ثقاب قديم، ثم تَوجهت نحو الكرتونتين لتخرج السكر والشاي وكيسًا بلاستيكيًا أحمرًا به خبز وجبن.

نَظرت نحوي وقالت:

«تعالي وادهني لنا الخبز بالجبن، وأنا اصنع الشاي، مع الأسف، لستِ في بيت العم ناجي لتحظي بعشاء دافئ أكثر من هذا».

فتقدْمت وأخذت من يدها الخبز وأنا أتذكر أول دخول لي إلى بيت العم ناجي، وكيف كانت تعاملني العمّة وهي لا تدري بأنيّ حفيدتها. أصابني الضيق فجأة حينما انتبهت أن من ظلمني هو من كنت أظنه يحميني، أو يعقل أن يكون الأمان وهمًا وخديعة.

انتبهت أن خضرا قد انتهت من الشاي فحملت الخبز بيدي،

توجهنا نحو الغرفة وتعشـينا هناك، فرشت لي فراشها ونامت هيّ على بطانية شتوية.

لا أذكر كيف نمت يومها، ولكني أغمضت جفني على الأغلب دون أن أشـعر، لأفتحه وأنا في تلك الذكرى القديمة حينمـا ذهـب الليل بسـرعة دون رجعـة، وأهداني إلـى نهار لا ينفك يعذبني بشمسـه السادية، يقهرني ويطهوني على حرارة منخفضة، ليصنع منّي خضرا ولكن بعينين بنيتين.

جـاء الصبـح مـرة أخـرى، جـاء دون العـم ناجـي. عيناي معصوبتـان بالحـزن. إنها الحيـاة، فليس بمقدورنـا أن نوقف اسـتمراريتها، فالصبـح يأتـي بموعـده، والليـل حريص على الوجود. لابد أن نعيش حتى ولو لم نشـأ، ففرص الموت نادرة. يستطيع أن ينالها البعض بينما يطلبها آخرون.

انتبهـت أن خضـرا قـد خرجت بعـد أن جهزت لي الشـاي وافطارا مُماثلاً لعشاء البارحة.

تقدمـت نحو المطبخ الذي كانت تسـميه (ديمة)، وتلك هـي تسـميته الأقرب له، فمـن الواضح، أن خضـرا لم تبخره حتى بطبخة واحدة، ولكن ما فاجأني هو مقطور على سقف حجرة البيت، مما أكدّ لي أن الدار كلها كانت مجرد مطبخ كبير قسـمت ردهاته ليسـتعمل كمنزل صغير، ففي العادة المقاطير توجد فقط في المطابخ لإخراج دخان وروائح الطبخ،

ولتنير جنباته، ونعرف الوقت عبر تتبع عمود النور المنسكب عليه، هذا المقطور المنسـي الوحيد، يقع في منتصف ردهة البيـت، لكنـه محجوب بزجـاج أبيض، مما منعـه من إخراج الهواء، ولكن لم يمنعه من صنع عمودٍ مائلٍ من نور الشـمس. فتحت نوافذ البيت الثلاث فدخل الهواء كشخص ألهبه فضوله ليتجول كطفل شـقي يعلمنا أن نضحك. رأيت البيت يستنشق لأول مرّة فتراب النوافذ أكّد لي ذلك.

بحثـت عن مكنسـة لأنفـض عـن البيت غبـاره وأكنس وسـخه، وجدتها تنتظر بملل خلف الباب، حملتها، فحدثتني الكثيـر عن خضـرا وعن انزوائها عنهـا، ترفعت عن النميمة معها عن خضرا، و كنست بها من أول الدار إلى آخره، نفضت عنه كل شـي: صناديق فارغة وخـرق ممزقة وأدوات ليس لها قيمة ولا نفع، وبعد انتهائي نظرت إلى الدار وقد تباهى بنفسه بعد مروري أنا وصديقتي الجديدة مكنسة القش عليه.

شعرت بالشفقة على خضرا التي تعمل جلّ يومها، وفكـرت ما الذي أستطيع عمله لأكسب قوت يومي على الأقل.

فكـرت بخبـز الكعـك الـذي تعلمـت صنعه مـن العمّة، ولكننـي لا أملـك فرنًـا هنا، ففكـرت بالصوف مـع أني لا أتقنـه جيـدا، ولكن مـن أين لي بالصوف، لا شـيء معي، لا شيء سوى خضرا.

تأخرت خضرا وبدأت أشعر بالجوع يعتصر معدتي.

فكرت بالخروج للبحث عنها، ولكنني لا أعلم حتى أين أنا، صحيح أنني عشت في الشارع سنوات عديدة، لكن جلوسي في بيت العم ناجي كل تلك السنين جعلني أتخوف حتى من المشي فيه.

قد أخبرتني العمّة عنه أشياء مخيفة، كأنها كانت تقصدني أنا بالمخيفة. تذكرت آن ذاك كل محاولاتي لكسب رضاها و ثقتها، لكن دونما فائدة، إلى أن جاء اليوم الذي استشعرت نجاحي في اقناعها بحبي لها، وصدق سعيي في الحصول على رضاها، وكان ذلك يوم عرضت علي الخروج معها إلى عرس ابنة أختها التي تسكن في حيّ جديد يقع خلف شارعين من حيّنا.

كنت سعيدة جدا برضاها وبالذهاب معها، كان يومًا مهيبًا، فقد كان أول عرس أحضره.

تفاجأت يومها بوجود خيمة على سقف المنزل شيدت خصيصًا للعرس.

كانت خيمة كبيرة، زينت زاوية فيها بمقعد العروس، وزينته من الأقمشة الجدارية الكبيرة، والمطرز عليها بخيوط ورسومات فاخرة، أمّا ساحة الخيمة فقد توسطتها طبق معشرة ذهبية رصت عليها أواني نحاسية مملوءة بنبات

الشـذاب والريحـان، وفي زفة العـروس حمل الفتيـات خلفها صحونًـا معدنيـةً مزخرفةً بالجص، ومرصـوص عليها البيض والشمع وأغصان الشذاب.

أجلسوا المغنية ومساعدتيها على مرتفع عن بقية المعازيم، وأوصتني أخت العمّة بأن ألبّي احتياجاتهن هنّ بالذات.

كنـت أمرّ وطبق كبير في يدي قـد تزاحمت عليه فناجين القهـوة، فأوزعها على الحاضرات، بينما المغنية تغني وتضرب بعودها الشجي، وكلتا المساعدتين تدقان، واحدة على طبل، والأخـرى تضـرب بملعقة علـى صحنٍ من المعـدن. كان صوت طـرق الملعقة على المعدن أشـد وقعاً على قلبـي، فكان قلبي يهتز بموجات الصوت المتنافرة. تمنيت الجلوس بمقيلهن لأسرح بامتـزاج روائـح العطـور والفـلّ والعـود، ولأرى الراقصات وهنّ يتمايلـن بأثوابهـن الزاهيـة برقصـات ودقات مختلفـة، لكنني كنت كلما جلست تطلب مني إحداهن الماء أو القهوة، فأذهب مسـرعةً وأغسل الأكواب الزجاجية فتصب فيهن القهوة إحدى المعاونات في المطبخ، ولا أنسى ماجرى لي يومها من غبن.

ففي ذلك اليوم كانت إحدى المعاونات اللاتي في المطبخ تنظـر نحوي بغرابة كلمـا دخلت، كانت تلبـس لثامها حتى أسـفل أنفهـا، وتجلس فارجـة رجليها على كرسـي صغير لا يناسب جسمها الممتلئ، تحرك الشاي والقهوة بملعقة كبيرة،

وتمضغ اللبان بطريقة تجعله يطرقع تحت أسنانها ، اقتربت منها وقد غسلت الفناجين أمد لها بالطبق كي تملأ الفناجين الفارغة ، فنظرت نحوي وسألت :

«ابنة من أنت يا فتاة؟»

لن أصف لكم مشاعري في لحظتها وسأدعكم تتحملون مسؤولية إيصالها إليكم وإلى كل قارئ لقصتي، فالخوف والخزي والقلق والضياع والحزن والقهر كل ذلك وأكثر لا يصف شيئًا ، حتى اختفاء لون وجهي وارتجاف يديّ، صدقوني لا شيء قد يصف شعور اليتم.

وحينما لم أجبها لم تسألني مرّة أخرى، أظنها قد فهمت من صمتي، واكتفت بصب القهوة الحارة في الفناجين المبللة.

وضعت الطبق على الأرض لأخفي رعشة يدي، وأيضًا لكي أجد وقتًا لأسترد نفسي، ففهمت هي ذلك وعرضت عليّ حمله عني، فرفضت وتحملت الطبق الثقيل وحملت معه روحي المضطربة من سؤال سأظل أعاني منه مدى عمري.

وصلت الخيمة وطبق الأكواب في يدي، كنت حريصة جدًا عند مروري بجوار مكبر الصوت خشية أن أتعثر بأسلاكه التي على الأرض؛ خوفًا من أن تسقط صينية القهوة الساخنة على الحاضرات.

حاولت العمل بجد يومها ، لكي ترى العمّة أن وجودي كان

فعالًا ، ولكي تعتد بنفسها أمام أختها والحاضرات، ولكي لا تندم لقرار دعوتي بالمجيء معها.

وحينما دخلت العروس للمرة الثانية ، ولكنها هذه المرّة بفستانها الأبيض الجميل، وهي تلبس على رأسها تاجًا مذهّبًا كبيرًا كالمروحة ، وقفت وأنا أحدق إليها بإعجاب، فلمحتني إحدى قريباتها ، أشارت للتي بجوارها فنظرن نحوي ثم سمعتها وهي تدعو للعروس باسمها وتقول:

«حجاب اللّه على عروسنا ، يحميها من كل عين حاسدة».

لم ألمها فقد كانت العروس جميلة ، ولكن حين اتبعت دعوتها بزغرودة طويلة وهي تنظر نحوي نظرة طويلة ، كأنها لا تطرد الشياطين فقط، أو كأنها رأتني بغير هيئتي، فخفت حتى من نفسي.

اختبأت خلف الباب لكي لا يراني أحد ، فلن يفهم أحد مابي، فحتى أنا لم أعد أفهم ماذا أكون.

انتهى العرس، وسمعت العمة تبحث عني. كانت المرّة الأولى التي أشعر فيها بغصة تملأ حلقي حتى ظننت أنّي في بداية مرض، ولكن سرعان ما ذهبت تلك الغصة حينما وصلنا إلى البيت، و فتح لنا العم ناجي وبسمته تملأ وجهه.

قطعت خضرا ذكرياتي حين فتحت الباب، دخلت تحمل كيسًا بلاستيكيًا شفافًا فيه دجاج مشوي وأرز وخبز. جهزت

المائدة، وطلبت منها أن تتقدم لتأكل، فأخبرتني أنها قد تغدت، وأنها قد ابتدأت تمضغ القات.

أكملت غدائي، وأحضرت الشاي، وجلست أمام باب الغرفة أرى ضوء المقطور المنسكب حتى آخر الحجرة، نظرت نحو خضرا وقد بدا عليها الانسجام، فأخبرتها برغبتي في العمل، وبأنني أريدها أن تبحث لي عن عمل مناسب معها في المستشفى، فوجئت خضرا بعدم قدرتي على القراءة والكتابة. تعهدت لي أنها ستعلمني، فقد أكملت الابتدائية حينما كانت مع أبيها.

كانت متحمسة لحظتها في تعليمي الحروف، ولكن عدم وجود قلم أو ورق في الدار منعنا من ذلك.

تكررت الأيام، وتكرر رد خضرا عن عدم وجود عمل يناسبني. كنت أرى صحتها تتهالك أمامي يومًا بعد يوم، فقررت البحث بنفسي. عرضت عليها فكرتي في الخبز والصوف، ولكنني لم أجد تشجيعًا منها بحجة عدم وجود مواد أو فرن، وأن راتبها يأتي وقد استدانته إيجارًا للدار، وبأنها لا تعرف أحدًا لتستلف منه أي مبلغ إضافي.

فكرت بالبحث بين بيوت جارات العمّة، فهنّ يعرفنني، فقد يقبلن بتوظيفي لديهن حتى ولو بمناسباتهن الكبيرة، كالأعراس والموالد، فهن يحتجن دائمًا يد العون في ذلك،

وحينما أخبرت خضرا بقراري، رأيتها تنظر نحوي باستهجان وكأنها تحاول فهمي في قبول أمر كهذا ، فقالت لي وعلى وجهها علامات تدل أنها مستنكرة :

«هذه حياتك وهذا اختيارك».

استفزتني عبارتها فقلت :

«نحن نمشي بأمر الله، وهذا هو الطريق الوحيد الذي أمامي كي أعيش».

نظرت نحوي وكأنها تستحضر شيئًا من ماضيها ثم قالت:

«بلى، هنالك خيارات عدّة وطرق مختلفة ، أنت من تضعين قدمك حيثما ارتضيت من طريق، لكنك جبانة وتفتقرين إلى الشجاعة، تعلمت الخضوع والانقياد لما يريده الناس منك، وترين ذلك هو الأسهل».

_ الأسهل؟! أنت لا تعرفين شيئًا عن خدمة الناس والذلّ الذي أتكبده من البعض، صدّقيني، ذلك ليس الأسهل أبدا ، لكنه الأشرف ..

توقفت للحظات عن الكلام، و أنا أنظر إليها؛ خشية أن يكون كلامي قد جرحها ، لكن عينيها ازدادتا حدّة وكأنها عادت لتلمع من جديد كسابق عهد خضرا ، ثم قالت مستهترة و هي تشير بضم كفها نحو وجهي وكأنها تصوب كلماتها به:

«أشرف ! وكيف تعرفين أنه الأشرف؟ أتظنين أن نساء المنازل أشرف مني؟ لا يا عزيزتي، لسن كذلك. الفرق أنهن اخترن سقوف منازلهن وأنا اخترت سقف ربي، هن يبعن شرفهن كل ليلة لرجال يسمون أنفسهم أزواجًا، ولكنهم أسيادٌ يسودونهنّ بالمجان، أما أنا أحتفظ بنفسي كما أريد».

ثم أكملت وهي ترتجف من العصبية:

«أحقًا تظنين الزواج شرفًا؟! أي زواج هذا الذي لا يؤخذ برأي المرأة التي تعقر على عتبة باب ما يدعونه زوجها، هوَ بيع وشراء، بل وأحقر من ذلك، أفضّل الانتحار دونه، صدقيني، لا تريدين أن تكوني إحداهن».

أجبتها:

«أو لم ترمِني لبيت ناجي المسايري تفضيلاً على البقاء معك؟! وكيف سيكون مصيري لو كانوا اعترفوا ببنوتي؟ أولست سأزوّج لرجل كجميعهن و سأكون إحداهن؟».

ـ لا، ليس ناجي المسايري الذي يبيع ابنته ...

توقفت فجأة عن الكلام، وكأنها تراجع قولها وتهورها في الرد.

تعجبت كيف غيرت رأيها بالعم ناجي فها هي تصفه بالمرؤة فجأة بعد أن كانت تشتمه إلى قبره، فقلت:

«أوَليس هذا ناجي المسايري الذي كنت تشتمينه البارحة؟».

ـ نعم، لم أكن أتخيل أنه سيتغير هكذا ، وعوضًا أن يزوّجك تزوجك هو.

أقفلت الحديث بتصميمي على ما قررته من العمل المناسب لي، ولو مؤقتًا ، لجمع ما أستطيع جمعه لمشروعي القادم.

بعد خروج خضرا إلى عملها ، تحضرت للذهاب إلى منزل إحدى صديقات العمة ، فالقدر قد لا يأتي، وإنما نذهب إليه.

كنت أسميها (أمي زهر) فهي من طلبت منّي ذلك، لقد كانت تحبني وتثني عليّ دائمًا، وتدافع عني حين تشكوني العمّة إليها، وذلك بمقارنتي بابنتها نبيلة التي تكبرني بثلاث سنوات، كما تقول، فتشكو للعمة عدم اكتراث نبيلة في تعلم أعمال المنزل. لكن على رغم فرحي دائمًا بقدومها إلّا أنه لم تكن تعجبني جلسات الشكوى تلك، فأغلب شكواهن كانت مبالغة وتجنٍّ علينا أنا ونبيلة، كنّ وكأنهن يتباهين في من منهن أكثر صبراً علينا، حتى ولو بالغن في التجنّي علينا. أنا أعرف نبيلة. هي فتاة ذكية جدًا ولطيفة ايضًا، كنت كلما ذهبت إلى منزلهم لغرض تطلبه العمّة، تخرج نبيلة لتسلم عليّ بفرح، وقد كانت دومًا ما ترتدي البناطيل، ومع أنني كنت أستغرب لبسها إلا أنها كانت تبدو به أكثر جمالاً من أي لبس آخر لها. وفي يوم من الأيام، فتحت لي نبيلة الباب وعادت تجلس على كرسي تحت شجرة في فنائهم تقرأ كتابًا، فدخلت و أوصلت رسالة العمة، وعند خروجي قامت نبيلة لتغلق الباب خلفي، فتجرأت وسألتها عن المدرسة، ثم طلبت منها أن تريني كتاب المدرسة الذي بيدها، فردت علي أن الذي بيدها ليس كتاب مدرسة وإنما رواية لإحسان قدوس.

هكذا أذكر الاسم، لأنها حين قالته شددت على الحرف

الأخير، وأخفضت صوتها حينما اقترب أبوها ليسأل من هناك.

العم جمال كان في الأربعين من عمره على ما أظن، متوسط الطول، منتفخ البطن قليلًا، أبيض الوجه وأحمر الخدين، يشبه نبيلة كثيرًا، يعمل في تجارة الذهب، فله محلّ لبيع الذهب والفضة. عرفت ذلك حينما سمعت العمة في أحد الأيام وهي تحدث العم ناجي أنها ستذهب إليه.

كان العم جمال رجلًا ضحوكًا ومرحًا، فحينما رآني خلف الباب أكلم نبيلة ضحك، وهو يقول لابنته :

«قدوس مَن يا بنتي، هداك اللّه».

ظنًا منه أنني أنا قدوس، فضحكنا جميعًا.

أحببت منزلهم كثيرًا، فقد كان مليئًا بالحركة والضحك، وتمنيت لو أننا في منزل العمّة نحظى بالقليل من هذا الجو المفعم بالبساطة والمحبة.

وصلت إلى شارعهم اليوم وقد زينت جنباته أشجار صغيرة، فتذكرت حين كان الشارع ترابيًا، و أذكر أيضًا حين رُصِف بالأسفلت، وكم تمنيت يومها أن أمشي فيه وأنا ألبس شرشفًا أسود كشراشف العمة وسماح، فلطالما أعجبني منظرها، لولا تراب الشوارع الذي كان يثنيني عن المغامرة في طلب واحد من العمة، كان يغريني لونه الأسود الداكن وطريقة لبسه وانسداله على الجسم، فكنت سأربط جزأه الأول على

خصري والجزء الثاني أضعه على رأسي، وبعد ذلك أربطه خلف رقبتـي، ثم أردّه وكأنه شـعر كثيف منسـدل بطول ظهري، ثـم أعيد طبقته الأمامية إلى صدري. أذكر أنني تجرأت يومًا وجربت سرًا أحد شراشف سماح القديمة، لكن حمرة بشرتي لم تعطني جمال انعكاس السواد الذي كنت أراه حين تلبسه سماح، ولكن لشوقي لامتلاك واحد منهم، سألت العمة حينما كانت توزع ملابسـها القديمة، ولكني فوجئت بنبرة صوتها حين تغيرت وقالت لي

«الشراشف ليست لك».

ثم أكملت قولها تؤنبني:

«ابنة من أنت كي تلبسـي شرشفًا؟! يكفيكِ غطاء رأسك الطويل».

تقبلت رأيها فهـي أعلم مني بأمور كهذه، ولكن، حينما رأيت نبيلة عند وصولي إلى رأس شارعهم، وهي ترتدي معطفًا بنيًا يشبه كثيرًا غطاء رأسي الذي ألبسه، غير أنه كان بلون موحد بلا نقوش عليه، وكانت تلبسه مع حجاب قصير محنًا بألـوان كثيرة، منها لون المعطف، فأعجبتني رقصة الألوان على حجابها، ففهمت أن رأي العمة قديم وقوانينها بالية.

كانت نبيلة تصعد إلى السـيارة مع أبيها حين وصلتُ إلى رأس شارعهم، فأسفت أني لن يتسنى لي مقابلتها.

كانت دارهم كبيرة ليست كدور صنعاء، فهي بيت بطابقين عريضين واسعي المساحة، وفناء أمامي به ممرات رُصفت وسُورت بسياج قصير من حجر الياجور الأحمر.

كان الممر الرئيسي يوصل إلى باب الدار الذي بني في وسط الفناء؛ مما جعل الحوش حول الدار كاملةً، فتطل كل النوافذ إليه.

وكان الدار قد ترفع عن الفناء بأربع درجات لا غير؛ مما أوحى إليّ أن الفناء سعيد، كشاب أنيق وجد كل صباح لدى محبوبته.

وما أن تمشي بإحدى ممرات الفناء حتى تحنو عليك أوراقه وتسايرك روائح الشجر والتراب النديّ، فتعطرك رياحين الزهور لتلهيك عن ذاك الاعتراك.

وحين وصلت أمام الباب ضغطت على زر الجرس، وماهي إلّا هنيهة حتى فتح لي زيد أخو نبيلة، وما أن رآني؛ ابتسم وقد كان في السابعة من عمره. سألت عن والدته، فأدخلني إلى البيت بنفسه بحجة أنها مشغولة في المطبخ فقد كان يعرفني جيدًا.

دخلت و أنا سعيدة بفرحة زيد وابتهاجه لرؤيتي. وصلت إلى المطبخ وسلمت على أمي زهر التي حين رأتني توقفت لتنظر نحوي، ثم ابتسمت لي مرحبة وقالت:

«حيّا بك يا ابنتي، لقد افتقدتك ورأفت لحالك بعد موت أبو خالد رحمه اللّٰه».

ـ يرحمه اللّٰه.

أشارت إليّ لأجلس على كرسيٍ قريب ثم قالت:

«سمعت أنه تزوجك كي يستبقيك لديه في البيت».

جلست وقلت:

ـ نعم، صحيح، حدث ذلك، ولكنه عمي ومثل أبي إلى أن توفى يرحمه اللّٰه، وما فعل ذلك إلا لكسب الحجة أمام الناس رأفة بحالي.

ـ ما أشد براءتك يا ابنتي، بل قولي رأفة بحاله هو، فمن سيخدمه بعدك.

سكتُّ ولم أجب، فلو تكلمت معها أكثر قد تستدرجني لقول المزيد وأنا أعرف حيلها ومقدرتها على ذلك، فلطالما حذرتني العمّة منها ومن قدرتها على جعل أي شخص يكشف كل أسراره و مشاكله لها.

كانت في تلك اللحظة تقطع العجين إلى قطع كبيرة للخبز، لم تكن أمي زهر كالعمة التي كانت تهتم بأدق تفاصيل ملابسها، فالعمة كانت تحرص على ما تلبسه خارج المطبخ أو داخله، ولكل مناسبة لها ملابسها الخاصة، حتى

أنه وقت الخبز في التنور، كانت العمه تحتفظ بمعطف خلف باب المطبخ، لتلبسه وتحمي ساعديها وملابسها من حرارة التنور.

اقلقني الصمت القصير بيننا، وخفت أن تعود أمي زهر لتسألني، فأردت تحويل الحديث، فسألتها عن نبيلة، وأخبرتها أنني رأيتها تخرج، فقالت :

«أبوها يوصلها إلى الجامعة فهي ستدرس هناك، تقول سيكون لديها حصة أسمتها محاضرة، ولا أدرى كيف يعلمون البنات وقت تقديم الغداء، فما هو أنفع لهن أكثر من ضرب الحلبة؟!».

أدركت عدم رضاها عن نبيلة الدائم، واقتناعها أن العلم والتعلم ليسا ذا قيمة وفائدة للنساء. فقلت لها سائلة:

«و ماهي الجامعة، هل هي مثل الجامع؟».

ـ لا أدري يا ابنتي، ولكن كما فهمت، هي أكبر من المدرسة، وستتخرج منها لتكون معلمة.

سألتها بصوت تشوبه اللهفة:

«و تعلم الفتيات القراءة والكتابة؟».

ـ نعم، تعلمهن في المدرسة.

لم ترضِني إجابتها، ولكنني سرحت بحلمي القديم في

تعلم القراءة، ففكرت أن نبيلة سوف تعلمني.

أشعلت أمي زهر التنور كي تخبز، فغسلت يدي وبدأت أخبز لها الخبز بنفسي، بينما جهزت هي بقية أطباق الغداء، وأخبرتها عن احتياجي للعمل، وما إن طرقت أول خبزة على جدار التنور، حتى طمأنتني أنها سوف تساعدني في إيجاد عمل مناسب لي.

أتى موعد الغداء، ووصل العم جمال مع نبيلة، فوضعت الغداء على السفرة، ورجعت إلى المطبخ، فناداني العم جمال كي آكل معهم، رأيت القبول من أمي زهر، فتقدمت باستحياء، وحين شعروا بعدم قدرتي على كسر حاجز الخجل الذي كنت أشعر فيه؛ أعطوني أكلي وأكلت بجانب مائدتهم.

مددت نظري إليهم وهم يأكلون، نبيلة تحكي عن جامعتها، وزيد يقاطع حديثها، فتغضب ثم يضحكون سويةً عليها وهم يتخيلون غضبها أمام مدرسيها في الجامعة.

كنت أضحك معهم، وأتخيل نفسي مكان نبيلة، وبجانبي خالد وخضرا يضحكون، فأغمضت جفني، وكذّبت خضرا حبًا وامتنانًا للعم ناجي.

أكملنا الغداء، وساعدت نبيلة في تنظيف المطبخ، وأطلعتها على رغبتي في التعلّم، فشجعتني ووعدتني أنها ستساعدني حتى أتمكن من القراءة والكتابة.

أخبرت أمي زهر أني سوف آتي لأساعدها غداً، لتخبرني عن نتائج بحثها عن عمل لي، فأعطتني ما تبقى من طعام الغداء وخبزتين كبيرتين، ثم رجعتُ إلى دار خضرا.

طرقت الباب تحسبًا مع أن لديّ مفتاح. فردت عليّ خضرا وفتحت الباب وقالت:

«لماذا لا تفتحين بمفتاحك؟».

ـ كنت أتأكد من وجودك.

ـ بل تظنين أن معي أحدًا، ياللك من حمقاء من سيقبل بامرأة متهالكة مثلي.

سكتُّ ولم أجب.

دخلت ووضعت الأكل على الأرض، خلعت غطائي وخضرا تتفحصني، فأربكتني نظرتها فسألت:

«ألست جائعة؟»

ـ بلى، يبدو أن عملك يُطعم أفضل من عملي.

ـ وما هو عملك يا خضرا؟

ـ أعمل في المستشفى، ألم تدركي ذلك؟

ـ بالطبع، ولكن ما هو عملك هناك؟

ـ أنظف العيادات، وأساعد الممرضات في عملهن.

ـ تبدو لي وظيفة جيدة.

ـ بالتأكيد فأنا أعمل في مستشفى كبير له صيته.

فتحت الأكياس وأخرجت مافيها ، و بدأت خضرا تتذوق الطعام ثم أكلت بنهمّ.

وبينما تأكل خضرا غداءها حضّرت أنا الشاي، تمنيت أن أصلي شكرا للّه، لكن خضرا ليس لديها حتى سجادة. فأخذت ملاءة وصليت عليها ، لمحت خضراء قبل أن أصلّي ، تنظر إلى وهي تدخل وريقات القات إلى فمها ، وما إن أتممت التسليم حتى قالت:

«علموك الصلاة، و لم يعلموك القراءة ؟!».

ـ تعلمت الصلاة قبل أن أذهب إلى بيت العم ناجي، فقد كانت في الجامع حلقات ذكر كنت أحيانًا استرق السمع منها.

ـ كيف يتركك ناجي في الجامع كل تلك السنين؟!

ـ هذا سؤال عليك أنت وهو إجابته، أما أنا فقد أجبت عليه بعمري كله.

......

ذهبت في اليوم التالي إلى بيت أمي زهر. فتح لي زيد كالعادة. سألته متى سيذهب إلى المدرسة ، فقال لي إنه مريض وقد أخذ إجازة أسبوعاً بأكمله.

رَبـتُّ على ظهره اسـتلطافًا له، فاحتـج عليّ وتجهم وجهه؛ يحاول إثبات رجولته المبكرة، وقال:

«انا كبير، لست طفلاً تربتين على كتفه».

فزممـت فمي لكـي لا أضحك، أحـاول مجاراته كي لا يغضب أكثر، وقلت:

«نعـم، نعم، أعتـذر منك يا زيد. لقـد أخجلتني، في المرة القادمة سوف احتجب منك».

أعجبـه اقتراحـي جداً، ولمحت ابتسـامة نصـر تخرج من بين شفتيه.

التفتُّ لأكمل طريقي إلى المطبخ، فرأيت أمي زهر خارجة من غرفتها. تقدَمَت نحوي وقالت:

«حيّا بك يا خضرا، ادخلي يا ابنتي».

فسألتها بعجل :

«هل وجدت لي عملًا؟»

ـ لسنا في موسم أعراس، ولكن لا تقلقي، شهر بالكثير وتبدأ الأعراس والمناسبات التي لا تنتهي.

ـ إذا لا عمل لي!

ابتسـمت وهـي تنظـر نحـوي كأنها تعلـم أن ما سـتقوله سيرضيني، وقالت:

«تناقشت أنا وعمك جمال البارحة، واتفقنا أن تعملي لدينا في الأيام التي ليس لديك عمل فيها، ما رأيك؟».

تهللت أساريري، و فرحت بهكذا خبر، فما أحسنهم من أناس وعائلة كريمة أرعى في كنفهم. فقلت وأنا مبتهجة :

«شرف لي أن أعمل لديك يا أمي زهر».

فعاجلتني وقالت :

«ولكن مبيتك لن يكون لدينا فكيف ستفعلين؟»

ـ لا تقلقي فلقد و جدت أمي، ولديها دار، وانا أبيت عندها كل يوم».

ـ عجيب. و كيف و جدتها؟

في تلك اللحظة سمعنا العم جمال وهو مستعد للخروج ينادي لأمي زهر ويقول:

«سأذهب الآن هل تحتاجين شيئًا؟

ـ سلامتك، ولكن نبيلة؟ متى ستوصلها؟ فقد قالت إن لديها محاضرة في العاشرة.

ـ دعيها تستعد، و سآتي قبل العاشرة إن شاء اللّٰه.

أخذتني أمي زهر نحو المطبخ، وجعلتني أتناول ما تبقى من الإفطار، ثم قمت بتنظيف المطبخ، وجهزت القهوة لها، وأمرتني أن أجلس لأحتسي القهوة معها.

وسألتني :

«قلتِ لي إنك وجدت أمك؟».

ـ نعم وجدتها في نفس ليلة موت العم ناجي.

ـ وكيف وجدتها؟

ـ كانت تعمل في المستشفى، وحين توفي العم ناجي أخبرتني أنها علمت بوجودي لديهم، وفضلت لي الحياة معهم.

احتست أمي زهر ما تبقى من قهوة في كوبها ، ثم وضعته وقامت تريني موضع الطحين لكي أعجن خبز الغداء.

حمدت اللّٰه أنها توقفت عن الأسئلة ، وتمنيت أن تكون هذه هي آخر أسئلتها.

أتممت تجهيز الغداء، وصعدت إلى غرف النوم معها بعد أن خرجت نبيلة إلى الجامعة.

أتممت التنظيف على أكمل وجه. كانت أمي زهر مسرورة مني وسعيدة بي. في الساعة الثانية ظهرًا عاد الجميع إلى المنزل، تغدينا ، ومن ثم عدت أنا لخضرا.

مرت الأيام ولم ألحظ تهاوي صحة خضرا وانتكاستها ، فقد انشغلت بدفاتري وأقلامي التي أعطتني إياها نبيلة ، مع الواجبات التي كنت أقضي كل وقتي في بيت خضرا وأنا أؤديها.

وفي أحد الأيام ذهبت كالعادة إلى منزل أبي جمال وأمي زهر، لكن في ذلك اليوم كان الجميع واجمًا، والأجواء متوترة وكئيبة على غير العادة.

تمنيت لو أنه يجوز لي السؤال عن السبب، لكني لم أجرؤ.

قبل الظهيرة، نزلت نبيلة متورمة العينين، تسأل والدتها عن أبيها لتعلمه أنها تريد أن يوصلها إلى الجامعة، فانتفضت الأم و قالت لها :

«لا تبحثي عن المشاكل يا نبيلة، واذهبي إلى غرفتك، واغلقي بابك فلا جامعة من اليوم».

تفاجأت من صرامة أمي زهر، ونظرت إلى انكسار نبيلة ودموعها التي تتساقط كالمطر وهي تقول :

«أرجوك يا أمي قفي معي، أنت تعرفين مدى حبي للتعلم، فلماذا تحرموني منه؟».

ـ لا، لن أعارض أباك، ولن أقف ضد مصلحتك».

عادت نبيلة ودموعها تغطي وجهها، دخلت غرفتها، أغلقت الباب ولم تخرج حتى للغداء.

حزنت على نبيلة، ولم أسأل عن السبب؛ رغم خسارتي للدروس التي كانت تعطينيها نبيلة بانتظام.

مَرّ اسبوع على نفس الحال، بعد ذلك أخبرتني أمي زهر

أن نبيلة ستتزوج، وأن العرس سيكون بعد شهر، وأن علينا التجهيز لكل شيء، فأخبرتها عن فرحتي لها، وتساءلت عن عدم فرحة نبيلة بذلك؟ فقالت إن العريس شاب ثري، من أسرة معروفة بتجارتها في الذهب، لكنه لا يريد منها أن تكمل سنواتها الجامعية إلّا وهي معه، ولكن نبيلة لا تثق بقدرتها على ذلك بعد أن تتحمل مسؤولية الزواج.

بدأت التجهيزات للعرس. كانت أمي زهر تخرج ظهرًا مع نبيلة، أكون قبلها قد أتممت تنظيف غرف النوم، فتغلقها أمي زهر وأكمل عملي في المطبخ إلى أن تعودا محملتين بأثمن الأقمشة والملابس، وفي كل مرة يخرجان فيها يغمرانني بكرم لم أعهده طيلة عمري، حتى أن زيداً نفسه كان يوصيهما علي ظنًا منه أنني سأقبل وأزوجه نفسي، فلقد طلبني أكثر من مرة من أمه، واتفقنا أنا وهي أن نجاريه، ونمازحه.

غيرة زيد الطفولية على أخته من خطيبها، كانت محاولة منه للتقرب إليها قبل أن ترحل، رابطهما الأخوي كان يلفتني، فعلى رغم مشاكسته الدائمة لها، إلا أنه كان يهتم بكل تفاصيل يومها، ويكرر سؤالها كل يوم عن موافقتها على العرس؛ طمعًا منه بأن ترفض وترجع عن الزواج، وعن الذهاب لدار أخرى.

أغدقت على خضرا من عطايا أمي زهر، ولكنها لم تكن

تبالي بفرحتي بعرس نبيلة ، فقد كانت دومًا تقول ها هو العيد أقبل بخروف جديد ، تقصد نبيلة بالخروف.

سألتها يومًا وقلت:

«لماذا يا خضرا ، أو ليس هذا هو الأفضل لنبيلة ولكل فتاة؟».

ـ يقولون ذلك، و لكنهم كاذبون.

ـ من هم؟

ـ الرجال ... أفضل واحد منهم كاذب أو فلنقل هم وحوش في أغلب حالاتهم. والزواج ما هو إلّا وضع رقبتك تحت رحمتهم.

ـ أوَلم تحلمي أن تتزوجي، وتكون لكِ أسرة كبيرة؟

ـ نعم، كنت غبية ، و ظننت أني استطيع أن أتزوج وأحيا حياة جديدة ، ولكنني اكتشفت الحقيقة.

ـ أتقصدين خالد؟

سكتت خضرا و لم تجب. فذكّرتها بذكراي القديمة عن حكاياتها لي عن العروس التي ستنجب أطفالًا ، حينما كانت تلاعبني.

حدقت بوجهي وقالت :

«أنت كنت تتخيلين ذلك ، فلقد أخذتك يومًا إلى عرس الجيران و رأيت عروسًا ، وكنت مبهورةً بالعرس، فكنت

أسـليّكِ وأتخيلك عروسًا ، وبأن لك أطفالًا ، وكان ذلك أحب لعبة وحكايةً تريدين سماعها.

بدأت أيام عرس نبيلة. شـعرت بأني ابنة أخرى لأمي زهر ، وذلك لثقتها بي واهتمامها بملبسـي ومأكلي وأوقات راحتي ، فحرصـت أنـا أن يكون كل شـيء فـي أفضل حالاتـه؛ حبًا وعرفانًا لها ولنبيلة.

سـاعدتها حتى حسـدنها الأخريات بمعونتـي ، فقد كنت أحرص على راحتها وراحة الحاضرات رغم كثرتهن.

كان عرسًا رائعًا ، وكانت نبيلة العروس الأجمل ، وصارت مضرب المثل جمالًا وأدبًا.

تميزت في خدمتي في العرس لدرجة طلب النسـاء لي في كل مناسبة لهن ، فبعد أن كنّ يتجنبني ـ كما علمت ـ بسبب زواج العم ناجي بي بعد وفاة زوجته ، إلا أنهن صرن يتسابقن في حجزي بعد العرس لمناسباتهن الكبيرة والصغيرة.

كثـرت المناسـبات ، وازداد رزقـي ، وكنـت أرى سـماح أحيانًـا ، وأحاول الاقتراب منها لأسـلم عليها ، مع أنها كانت تتحاشاني وكأنها لا تعرفني ، ولكن ما إن أرى مرام وصفية معهـا وهنّ يكبـرن ويزددن جمـالاً أفرح ، وخصوصـاً حينما كانتا تقبلان نحوي يسلمنّ ، يفرحنّ لرؤيتي ، فتغمرني السعادة وأنسى جفاء أمهما.

وفي أحد الأيام بينما كنت في مطبخ العرس الذي أعاون به، حينما كنت أغسل فناجين القهوة، دخلت سماح، رأيتها تتسلل وكانت حريصة كل الحرص أن لا يراها أحد، تعمدت تجاهلها لأرى ما إن كانت تتعمد القدوم نحوي أم لا. لكنها فعلاً كانت تريد أن تكلمني. اقتربت مني وادّعت أنها تريد غسل يديها بينما كنت أغسل الفناجين. وسألتني :

«أما زلت تعتقدين أنك ابنة خالد؟».

ـ أنا لا أعتقد شيئًا، ولم يعد يهمني ابنة من أنا، ولخضرا أن تقول ما تشاء، أنا نور ولست خضرا.

ـ قد سألت خالد عن خضرا يا نور.

تفاجأت من قولها، أغلقت صنبور الماء والتفتت نحوها لأرى ملامحها، فأنا أعرف عينيها حين تكذب، لكن عينيها كانتا شديدتي الوضوح وقالت:

«حادثت خالد عن خضرا، فحكى لي عنها، وقال أنه يعرفها ولا ينكر أنه أحبها في سنوات طيشه، حتى أنه أهداها عقدًا ليثبت لها حبه، ذاك العقد الذي اتهمتك أمي بسرقته في ذاك اليوم، حتى خالد شك بكِ يومها، ولكنه لم يكن يعلم بعلاقتك بخضرا، فأبي لم يخبره عنك حينما أرجع له عقده، فقد كان ذلك قبل مجيئك بسنوات إلى بيتنا، وقد اخبره أبي أن خضرا قد ماتت، وكان قد نسى أمر خضرا تمامًا.

ثم أكملت و قالت :

«لم أتَجرأَ أن أسـأل خالد عن ما إذا كان قد تزوج خضرا أم لا ، لكنـه أخبرنـي أنه بعد أن رفض أبـي ارتباطه بها ترك البلاد وهاجر».

ـ وماذا تظنينه يقول لكِ؟ تزوجتها دون رضا أبي.

ـ نور ... أخبرني خالد دون أن أسأله ، وقال إنه عرفك في أول يوم عرف به خضرا . وأنه كان يظن أنك أختها .

تسـاءلت حينهـا لماذا ينكـرون؟! أنا لم أطالبهم بشـيء ، وتركـت لهم كل شـيء ، حتى بعـد أن عاملونـي كجارية ، تجنبت أن ألومهم أو أعاتبهم ، فلماذا كل هذا العناء لتكذيب خضرا؟!

تركت سماح في ذلك اليوم دون أن أجيبها بحرف. تصرفتُ كأنها لم تكن أمامي ولم تكلمني ، خصوصًا ، بعد أن دَخلت إحدى المعاونات ورأتها بقربي.

مـرت الأيـام ، وخسـرت دفاتـري وأقلامـي بـزواج نبيلـة ، لكنـي اسـتمررت في المحاولة ، كنت أقـرأ كل ما يمر بي من كلمـات وحروف ، قـرأت اللافتـات والعناويـن ، وكنت أشـتري الجرائد والمجلات ، فقد وفـر لي عملي المال ، حتى أنني فكرت بحلمي الآخر ، وهو مشروع يضمن لي أنا وخضرا عيشة كريمة ، لكني انشغلت بانتكاسة خضرا الصحية التي

تفاقمت مع الوقت. فبرغم عملها في المستشفى مع الأطباء، وأنهم كما تقول يطببونها ويوفرون لها الأدوية اللازمة، إلّا أن حالتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم.

كنت أحرص على أن تأكل جيدًا، وترتاح جيدًا، دون نتيجة تذكر، فأصررت على أن تتوقف عن الذهاب إلى المستشفى، وذلك حينما رأيتها تتهالك أمامي، والحق أنها أصغت إليّ؛ وتغيبت عن عملها، فعرضت عليها الذهاب إلى عيادة طبيب كانت قد أخبرتني عنه أمي زهر، لكنها رفضت بشدة، وقالت إن أكبر أطباء البلاد يعمل معها في المستشفى، وقد اهتم بها بنفسه وأمرها بالأدوية التي معها، ولقد أخبرها أنها ستتعافى إن انتظمت بها فقط فاطمأننت لقولها.

تحسنت خضرا فعلًا، ولكنها لم تكن تقوى على النهوض من الفراش. كنت أجهز لها فطورها، وأتأكد بنفسي من أنها تناولته، ثم أذهب إلى بيت أمي زهر، وأعود عصرًا، جالبةً معي غدائي وغدائها. ويومًا بعد يوم، بدت تتحسن من ألمها، رغم اصفرار عينيها وضمور جسدها المستمر.

و في يوم وبرغم وهن جسمها إلّا أن ملامح وجهها كانت تشير إلى راحة وطمأنينة فقلت لها:

«تبدين اليوم أحسن حالاً».

ـ نعم، أنا كذلك.

ـ للّه الحمد.

ـ سامحيني يا نور.

ـ علـى مـاذا يا خضرا؟ بل أنا من أطلب منك المسـامحة، فلم أؤدِ واجبي نحوك كما يجب.

ـ سامحيني على كل شيء يا نور.

ـ سامحك اللّه.

ـ أريد عفوك أنت، أمّا اللّه هو الأعلم باسـتحقاقي عفوه، هو من أعطاني الحياة لأختار، وقد اخترت بكامل ارادتي.

نحن طـوع قَدَره وأمره. لقد حكمتـك ظروفك يا خضرا، ومثلـك أنـا حكمتني ظروفـي، وليس لنا سـوى طلـب العفو والرحمة».

ـ لا يا نور، وأقولها لك مرارًا. خلق اللّه لنا طرقًا مختلفة، نحن من يضع قدميه عليها، ومن لا يملك تلك الشجاعة فليس له الحق أن يسمى إنسانًا وسيحشر كالبعير، فما الفرق بيننا وبين الخرفان إذًا؟ فمهما كانت ظروف حياتنا نسـتطيع تغييرها، عليك فقط أن تتحلّي بالجرأة لتكوني حيّة وتستحقين صياغة عمـرك، لكي يعطيك اللّه حق الاختيـار، وحين تفعلين ذلك تذكرينـي يا نور، تذكريني وأنـت تتذوقين حلاوة حريتك، وطعم أن تكوني ربة نفسك وإله قدرك.

كانت عيناها تلمعان، ابتسمت وهي تنظر إلى وجهي وتتفرس ملامحي، رأيت انعكاس نور النافذة من خلفي على عينيها، فرأيت ظلّي في عينيها، رأيتني أنا نور اثنتين في كل عين من عيون خضرا.

جلست بجوارها إلى أن بدأ النوم يغلبها وقالت:

«أنت لا تشبهين أحدًا يا نور، هم لا يستحقونك».

رأيتها تغفو، فلم أسألها عن أولئك الذين قصدتهم بأنهم لا يستحقونني...

جهزت الدار لخضرا ورحلت إلى عملي.

وصلت إلى بيت أمي زهر. رأيت سيارة تقف أمام مدخل الباب وسائقها ينتظر على الرصيف المقابل، فخمنت أن لديها ضيف. دخلت البيت فوجدت عندها امرأة تبدو في الخمسين من عمرها، يشتد لثامها الأسود على جبينها الضيق وذقنها العريض، فتبدو عيناها أكثر بروزًا، لم تكن غريبة على فقد رأيتها من قبل.

كنّ يحتسينّ القهوة. رائحة البخور تتصاعد بين جنبات الغرفة. أشارت إليّ أمي زهر وقالت :

«اقتربي يا نور، وسلّمي على أمك صباح، فقد جاءت تسلّم عليّ قبل أن تعود إلى قريتها في ذمار».

ذهبت نحوها وسلّمت فقالت لي:

«كأنّي أعرفك يا فتاة رأيتك سابقًا. أليس كذلك؟»

فأجابت أمي زهر قائلة

ـ لعلك تذكرينها في إحدى زياراتك لمولد سماح.

ثم التفتت أمي زهر نحوي وقالت:

«العمّة صباح يا نور، قريبةً لأم زوج سماح، وهي صديقتي أيضًا، وقد أتت من ذمار لتعزي بموت عمة سماح. فاجأني الخبر فسألت؟

«ماتت حماة سماح.. متى؟!»

ـ البارحة، رحمها الله.

ـ يرحمها الله.

فأوضحت أمي زهر قائلةً:

«هذه خضرا التي كانت تخدم ببيت ناجي المسايري».

فتعجبت العمّة صباح وقالت:

«ولماذا تنادينها نور؟»

فأجابت أمي زهر :

«خضرا اسم أمها، ولم تكن تحفظ سواه حينما وجدوها،

ولكنها الآن التقت بأمها وأخبرتها أن اسمها نور».

نظرت إليّ العمّة صباح وقد سكبت كل نظراتها المتفحصة نحوي وقالت:

«وكيف تبدو أمك يا نور؟ هل هي خضرا كاسمها؟»

ـ نعم، عيناها خضراء.

ازدادت على صباح ملامح الجديّة فضاقت حدقتا عينيها المصوبة نحوي وقالت:

«رعاك اللّه يا زمن، تبدو قصتك كقصة قديمة حصلت في قريتي قبل أكثر من خمسة عشر عاماً».

فتحمست أمي زهر وقالت:

«قصة؟ احك لنا إذًا.

تفحصتني صباح مرة أخرى و عيناها لا تنزل من عليّ، ثم ابتدأت حكايتها :

«تزوج أبن عم لي من ابنة عمّ لنا ولكنها لم تحبل إلا بعد ثلاثة أعوام. وحينها، ويا للأسف، لم تنجب صبيًا، فعزم على الزواج من أخرى كي تغدق عليه بالأبناء، فترجته زوجته أن تختار له هي الزوجة المناسبة فوثق بها ووافقها. فوجدت فتاة مسكينة، سكنت مؤخرًا في القرية مع أبيها الذي ما أن استقرا فيها حتى توفت عنه زوجته، ولم يكن بقادر على إعالة

ابنته بمفرده، فاختارت ابنته لزوجها، فوافق الأب على الفور، وهو يعلم أن ابنته ما تزال في الثانية عشرة.

لم يكن يعلم ابن عمي بشراسة طبع العروس، ولو عاش أبوها لكان ردها إليه مباشرة، ولكنه مات بعد تزويجها بأقل من عام. لم تنجب تلك الفتاة، لا في السنة الاولى ولا في الثانية؛ مما جعل زوجته في موقف حرج، فكانت تعذبها وتعاملها بسوء ظنًا منها أنها ستعيد تربيتها، ولكن دونما فائدة، بل على العكس كانت الفتاة تزداد شراسة، لكنهم لم يتوقعوا أبدًا جرأتها وخبثها، إلّا حينما اختفت وياليتها اختفت وحدها، لكنها أخذت معها ابنة زوجها ذات العامين. حاولوا البحث عنهما دونما جدوى، وماتت الأم بحسرتها».

ـ و ابن عمك؟

ـ تزوج أخرى على الفور، وأنجب أربع صبيان.

كنت أسمع القصة فشعرت بقلبي يقرصني.

ثم سمعت أمي زهر تسأل عن سبب تذكر صباح للقصة، ولماذا ذكرّتها أنا بها ...

فأجابت صباح وعيناها مصوبةً على عيني:

«لأن الزوجة الصغيرة اسمها خضرا، وابنة أخي المخطوفة اسمها نور».

نهضت من مجلسي كالمخدرة، لم انتبه لارتباك أمي زهر، ولم اكترث للحاقها بي وهي توصيني أن لا أخبر أحدًا بالقصة.

كنت مغيبة عن الوعي تقريبًا. خرجت من الدار وأنا مسلّمة قدميّ للطريق، الطريق إلى خضرا، لأرى عينيها وأنا أحكي لها القصة، القصة التي تشبه ظروفنا وأقدارنا.

رحت لأخبرها أن هنالك خضرا أخرى مثلها، وخضرا لديها أيضًا نور.

وصلت إلى الدار فتحت الباب والدار ساكنُ تمامًا، توجهت إلى فرش خضرا النائمة عليه فقلت:

«خضرا.. لقد جئت لك بقصة عجيبة».

لكنها لم تجبني فقلت مرةً أخرى :

«خضرا أرجوك اسمعي القصة ستعجبك كثيرًا».

لكنها لم تجب أيضًا، ربتّ عليها بلطف، ولكنها لم تجب أيضًا.

هززتها بقوة، أدرت وجهها ناحيتي، ولكنها لم تتحرك، وعيناها مغمضتان.

خفت فوضعت أذني على صدرها لأتفقد تنفسها، فلم أفهم، لماذا كل شيء بها ساكن؟ جمعت أفكاري ثم حملت

خضرا ، وخرجت من الدار أجري بكل ما أعطاني الله من قوة لأصل إلى المستشفى.

رأونـي و عرفوا خضرا ، أدخلوني لطبيبتها ، مددت خضرا على أحد الأسرّة ، وبدأت الطبيبة تتفحص صدرها و أنا أغرق بدمعي ، وضربات قلبي تهددني بالخروج من صدري.

أمسـكت علـى صدري بكفـي ليهدأ ، و تنفسـت بعمق ، ونظرت إلى عيني الطبيبة وأنا أسـألها أسـئلة تلاحق بعضها و بصوت أقرب إلى الضحك من البكاء:

«كيـف هي؟ أخبريني. هـي لم تمت أليس كذلك؟ فلماذا لا أسمع قلبها؟».

_ أنا آسفة ، لقد توفيت.

أنكرت ومددت يدي على خضرا وقلت:

«لا ، افحصي جيدا هي لم تمت ، لقد مثلت عليّ ذلك مسبقًا ، أرجوك أخبريني أنها لم تمت».

_ لقد توفيت ، لا شك في ذلك.

جلست على الأرض ، وأجهشت بالبكاء كطفلة صغيرة ، لم أدرك وجودها بي إلّا ذلك اليوم ، وكأنها انتظرت كل تلك السنين للحظة كهذه ، كي تمارس حقها بي.

تذكرت مشاعري المحبة لخضرا في طفولتي ، وتذكرت

إعجابي بها ، ولهفتي عليها إن غابت، تلك المشاعر كانت قد نامت، واستفاقت اليوم لتدفن مع خضرا.

بح صوتي، وفترت عضلاتي، سقتني الممرضة ماءً، وسألتني الطبيبة عمن أنا لخضرا.

فقلت:

«ابنتها».

فأجابت باستنكار تقصد به أن لا أكذب عليها وقالت:

«لا يمكن. فأنا طبيبتها ، وأعلم أنها لم تنجب من قبل. فمن أنت؟»

نظرت إلى عيني الطبيبة وتذكرت القصة التي كنت سأحكيها لخضرا وقلت:

«هل أنت متأكدة».

ـ نعم، أنا طبيبتها ، وقد تأكدت من ذلك بنفسي، حتى أنه مكتوب في محضر رسمي بسبب ادعائها ذلك في مرة من المرات على أحد الأشخاص.

فقلت و أنا أتجرع الهواء بصعوبة :

«ناجي المسايري؟».

هزت رأسها و قالت :

ـ لست أتذكر، ولكن الرجل الذي ادعت عليه كان

مسافرًا ، وحضر والده.

ـ إذًا انا لست ابنتها !

ـ خضـرا لـم تتجب أبـدًا ، هل ربتـك على هذا الأسـاس؟ مادامـت ربتـك فهي أمك مهما يكن، فقـد كانت تعاني من مشاكل نفسـية ، فكثيرًا من الأحيان كانت تدعي أشياء ، وتتقمص أدوار ليست لها. حتى أنها مرةً من المرات انتحلت دور طبيبة أمام المرضى. لذلك طردت من المبنى لأكثر من مرة.

ـ أو لم تكن تعمل هنا؟

ـ لا ، لم تكن تعمل، كانت تعيش على عطاء الناس لها.

كفكفت دموعي، و جمعت ركبتيّ، و مسـحت وجهي، ونهضـت مـن على الأرض. نظـرت لخضرا وقبّلتهـا لأول وآخر مرّة ، وخرجت.

عـدت إلـى الدار بعـد أن تم دفـن خضرا ، فرشـت الأرض خـارج الغرفة ، فلم اسـتطع النـوم في غرفتهـا ، وجهت وجهي إلـى المقطور أعلى السـقف، لـم يكن هناك قمـر ولا عمود نور. نظرت إلى السماء، تذكرت ذلك النهار الذي فارقت فيه خضرا لأول مرّة ، أحسست أنه انتهى اليوم. خضرا اليوم رحلت مني ومن الحياة ، زفرت الهواء الذي بداخلي ، جذبت أطرافي إليّ وفكرت بحالي ، تذكرت قول خضرا عن الحرية ، أيقنت أن خضرا عاشت حرة كما أرادت.

اختارت طريقها وسارت عليه. حتى الموت اختارته بإرادتها ، و تجرعت كومة من المسكنات لكي لا تضطر أن تتحمل اهتراء صحتها.

(كل حّر له الحق في اختيار قدره) هكذا كانت قناعتها ، لذلك تملكتها الجرأة والشجاعة ، وسعت لأن تكون كما أرادت ، ولكن هل اختارت لي خضرا ولم تعطني حقي في الاختيار؟ هل استعبدتني بجهلي ، وجعلت مصيري في يديها؟ أم أنه القدر الذي لا فرار منه؟

كنت أحدق في السماء ، أنظر من خلال فتحة المقطور العالية بأمل أن أرى نجمة جديدة تتربع الفضاء ، كنت سأسميها خضرا ، نمت في ليل طويل ، ليل ابتدأ لتوه بعد نهار استمر لأكثر من عشرة أعوام.

صحوت كعادتي في الصباح الباكر ، اغتسلت وصليت ولبست ملابسي الثقيلة؛ أحمي جسدي من برد أول أيام شهر كانون.

توجهت إلى منزل أمي زهر وأنا أتذكر حياتي وما مرّ بي ، تعهدت أن أعيش بقية عمري بإرادتي ، حرّةً لا قيد يمنعني مهماً كان صلبًا ، تعهدت أن أصل لأحلامي البعيدة.

رسمت في ذلك الطريق أحلامي وتطلعاتي ، أتوعد العالم ، وأشهر إرادتي في وجهه.

وما أن وصلت إلى رأس شارع بيت العم جمال، ورأيت المنزل ينتظرني في آخره توقفت، تلفتّ حولي لأرى الشارع فارغًا. وضعت يدي على خاصرتي، أقلّد خضرا كما كنت أفعل في طفولتي، درت نصف دورة كحركة خضرا أمام مرآتها، ملأت رئتي بالهواء، شفتاي تزداد اتساعًا، أشعر برياح الصباح تتغلغل تحت ملابسي. وجنتاي المحاذية للثامي تلتقطان أطراف رموشي الباردة وفجأة، أحسست بألم في صدري و ظهري.

أجزم أن الحرية كادت أن تكون في فمي، لكن طعمها كالدمّ، وضعت يدي على موقع الألم، وجدتها قد تحنّت حنّاء العروس ولكنه أكثر حُمرة، أقرب لحمرة شفاهك يا خضرا. وقعت على الأرض.

تقدم نحوي اثنان بيدهما سلاح أحدهم يسأل الآخر:

«ماتت؟».

ـ ستموت الآن .....

ينتظران موتي! أحقًا هذان ينتظران موتي؟ من هما؟ ولماذا أنا؟ ولماذا الآن، ولماذا أموت حين أكون حرّة؟!

رأيتهما يقتربان..

تحاملت على ألميّ، وجهت نظري بصعوبة إليهما، كان الأكبر سنًا يشيح بوجه بعيدًا، إنه لا يحتمل رؤيتي أنزف! فلماذا يريد موتي، شعرت بنظراته وهو يسترقها نحوي، لم

يكن موتي سهلًا عليه، توجهت بنظري نحو الآخر، كان يصغرني ببضع سنوات، يتقدم نحوي وهو ممتلئ بالفخر وكأنني غنيمة صيد ظفر بها أخيرًا. كان يمشي بتناقض طفل في الحادية عشرة يصطنع خطوة البالغين، وما أن اقترب منّي أكثر حتى لمحت جزءً من إنسانيته في زاوية في عينيه. ارتجف حين اقترب، فشعرت بالونس فلن أموت وحيدة، فهذا الطفل الممتلئ بالحياة لا بد أن يشفع لي عند الموت.

تحولت عيناي إلى عينيه فنظر نحوي، أقسم أني رأيت انكساره، رأيت وجهه يتدلى نحو الأرض. جلس بجواري ظننته سيندب فعلته، ولكنه أبعد ناظريه وتوجه بهما ليشحذ القوة من رفيقه الذي معه، ففهمت أنه الآمر فسألته:

«لماذا؟».

ففاجأني وقال :

«لأنكِ شرفي».

ـ من أنت ؟

ـ أبوك، وهذا أخوكِ الذي لا يضمن كيف كانت نشأتك، وأي النساء أنت.

ـ أنا طاهرة.

ـ ألسنَة الناس ليست كذلك.

ـ ما ذنبي؟!

ـ وما ذنبه هو؟!

ـ من الممكن ألّا أكون أخته.

ـ إذًا ذنب من قال ذلك.

ـ لكن أنا التي أموت.

ـ تموتين، لكي نعيش أمامهم بشرف.

....

ظلي...
لِمَ لا استطيع التحكم في الظل ؟!
لِمَ لا أسحبه إليّ ؟!
أو أسدله كستارة في نهاية المسرحية ؟!
لِمَ يستهويني تحريكه ؟!
إن حركته ستتحرك أشياء كثيرة
هل هو انعكاس؟
أم هل هو الواقع نفسه؟
ظِلٌ أسود يعكس عجزنا
عجزٌ فرضناه على أنفسنا
نتسلى بنقده، يستفزني منظره
فهو لاصق بي
كلما ابتعدت عنه كلما كَبر ! ليريني سوأة هروبي منه
لِمَ لا أقترب منه أو ألمسه ؟!
لِمَ لا ألمسه؟
لا أستطيع
أشعر بالقرف..

يزداد استفزازه لي

فيعلن انتصاره

ما زلت أُلقي اللوم عليه

ونسيت أنه ظلي وانعكاسي..

مهلاً ...

أنا لم أمت ...

فقدت الشعور بأطرافي، ثم فقدت وعيي إلى أن فتحت عينيّ لأجد نفسي نقلت إلى بيت أمي زهر، وقد طبب جرحي شخص عرفت فيما بعد أنه طبيب. كان يلبس نظارة تكاد تسقط من على ظهر أنفه. كان يتكلم مع عمي جمال. انتبهت أمي زهر أني صحوت، فأشارت لي بعينيها تعني أن أؤكد على كل ما تقوله. لم أفهم ساعتها ماذا كانت تعني، نظرت حيث تشير، رأيت الطبيب الذي ما أن رآني صحوت؛ حتى توجه نحوي مباشرة، ورفع نظارته برأس سبابته لينظر نحوي وقال:

«حمدًا للّه على سلامتك، أنت فتاة قوية يا نور وستتعافين قريبًا، ولكني أريد أن أعرف منك من الذي سبب لك ذلك. هل تعرفين من أطلق النار؟

أجابت أمي زهر وهي ترتدي لثامها:

يا دكتور، هم صبيةٌ من الحيّ، أخطأوا بحمل مسدسات

ذويهم، ولم يتخيلوا مغبة ما سيقع، فأصابوا نور بالخطأ، وما أن أدركوا ما فعلوه بنور التي يحبونها وتحبهم، حتى حاولوا استدراك فعلتهم، وتوجهوا إلينا لينقذوها، وقد تعهدوا بعدم مدّ أيديهم على السلاح مرة أخرى. ولقد أحضرناك لتنقذها دون أن يتضرر أحد، حتى نور بنفسها ترفض ضررهم».

قاطعها الطبيب وسألني:

«هل تعرفين؟ اوهل رأيت من أطلق النار؟»

أجبت بصوت ضعيف :

«نعم، ولا أريد ضررهما».

همس لي بصوت منخفض:

«هل يهددك أحد بشيء؟».

لا ، أبدًا..

إذًا ، سأتركك في كنف عمك جمال وأهل بيته، فلقد كانوا قلقين عليك جدًا.

بعد أن خرج الطبيب، أنزلت أمي زهر لثامها ورأيت ملامحها، كأنها شاخت فجأة، تلك العيون الحنونة انكمشت أطرافها، حاجباها الصغيران تائهان إلى الأعلى، وذقنها الصغير الذي كان يضفي عليها ملامح الأطفال؛ أراه اليوم قد تهادى إلى الأسفل، كأنه اعترف أخيرًا بقوة الجاذبية التي لا ترحم، من

تركت رداء الشباب لتحمل على عاتقها معطف الشيخوخة.

نظرت نحوي وعيناها تدمعان وقالت:

«حمدًا للّه يا ابنتي أننا استطعنا إنقاذك».

أجبت وصوتي يخرج من جوفي كحشرجة مريضة:

«ولكن، كيف؟ ومن حاول قتلي؟».

-أبوك وأخوك.

وهل هذا ما يفعله الأب والأخ ؟!

لا تنسي يا بنيتي أنك لم تتربي بينهم، بل في الشارع الذي خُطفتِ إليه. وقد خدمتِ في البيوت و ذلك كله عار كبير بالنسبة إلى قبيلتكم.

عار! وهم، أو ليس العار أنهم أضاعوني كل تلك السنين، ولم يجدوني؟!

ذلك ما جرى، وقد دعوت على نفسي وعلى لساني بالشلل لشعوري بالذنب تجاهك، فبلساني هذا عرفتك بعمتك صباح دون أن أدري، وكدت أن أقتلك به.

لا تقولي ذلك يا أمي زهر، فلولاكم لكنت الآن ميتة.

أخفت تنهدها، كأنها أرادت الهروب من مواجهة ما لا يقبل عقلها مواجهته، حقيقة، إنّا نحن النساء، الخطيئة الوحيدة في مجتمع غُمّس في تعويذة أبدية بالبراءة الزائفة، فليس أشقى ولا

أبأس، من أنثى تولد في مجتمع تتحمل كل خطاياه امرأة، مع أنها ليست سوى مخلوق ضعّف واستنزف وقيّد أيضًا بسلاسل العرف.

رفعت رأسي لأسألها :

«ولكن لماذا لم يتمّا جريمتهما ؟».

فقالت :

«بعد ذهابك من هنا، ورجوع صباح إلى قريتها في ذمار، توقعت ما سيحدث، فاتصلت بسماح وأخبرتها بكل الذي جرى، والحقيقة أنها لم تقصر في إنقاذك، فلقد تواصلت مع خالد، ولولا فارق التوقيت بين البلدين لما تعرضت لتلك الرصاصات أبدًا، فما أن عرف خالد بالخبر حتى اتصل مباشرةً بعمك جمال وأخبره أنكِ وصية أبيه الوحيدة وأنك في حمايته».

لم تكمل أمي زهر سرد بقية ما حصل، فقد كانت عيناي تنهمر بالدموع.

تأثرت كثيرًا، ظننت أنهم تخلوا عني، خالد الذي ظننت أنه أبي قبل أن أسمع الحقيقة من الطبيبة، ها هو اليوم من دافع عني.

سكتت أمي زهر حينما لاحظت تأثري وقالت :

«سأتركك ترتاحين، ومن ثم أخبرك ببقية ما جرى».

خرجت تجر خوفها علي، خرجت وهي قلقة أن لا أعود كما كنت، رأيت ذلك في عينيها ، لم أكن أتخيل أن في قلوب الناس متسعٌ لي، بعد أن مات العم ناجي.

لم تتركني أمي زهر طيلة النهار، وفي الليل نامت بجواري.

وفي اليوم التالي، دخلت أمي زهر وبيدها صحن الغداء، كانت مصرّة أن تسقيني المرق بيديها رغم خجلي، ثم ما أن بدأت أشرب حتى ابتدأت تحكي لي بقية القصة:

«بعد أن أبلغنا خالد بالخطر عليك، أصر أن يقوم بحمايتك، فأنت كما قال وصية أبيه الوحيدة له، طلب من العم جمال تولي ذلك و ايوائك في منزلنا ، ونبلغ أسرة المكيال أنك أرملة والده، و في حكم والدته، و في عهده و حمايته. وكونك ابنتهم فهذا أمر فيه شك، و نور لا تحمل اسمكم، و ستحمل من اليوم اسمنا ، و ان كان عليها عار فنحن نحمله عنهم، و لا شيء عليهم أمام الله و الناس، و ليعتبروا ان ابنتهم ماتت يوم ضياعها منهم».

وفي الصباح، كان عمك جمال ما يزال غارقًا في نومه، قبل أن نسمع أصوات أعيرة نارية. أصابنا الهلع من الشك بأن تلك الرصاصات قد تكون فيكِ. فانتفض عمك وأخذ معه مسدسه، وخرج بسرعة حتى دون أن يستبدل ملابسه، كذلك خرج جيراننا.

توجهوا بسرعة نحوك، فرأوك فاقدة الوعي تنزفين و أخوك وأبوك عاجزان ينتظران موتك، فحاججوهما على ذلك، وبدأ عمك جمال وجارنا بإسعافك، لكن أباك وأخاك رفضا، وكانا عازمين على تركك تموتين فصرخ بهم و كرر عليهم ما قاله خالد، و تعهد لهم بأن يذهب معهما لقريتهم إن ارادوا، و يعلن أمام قبيلة المكيال براءتهم من نسبك. حينها فقط، وجدها أبوك فرصة للخروج من المأزق مع خشيته من حمايتنا لك، و من الشرطة، فاقتنعا و رحلا من فورهما.

أتى بك عمك جمال إلى هنا، وذهب جارنا أبو أسعد ليجلب طبيبًا يعرفه لينقذك، دون تدخل الشرطة.

و ها أنت اليوم تثبتين لنا أنك أقوى من الرصاص، ولقد طمأننا الطبيب من أنك ستكونين بخير بعد أيام، فجروحك لم تكن خطيرة،

ثم واصلت وهي تهدد بصوت متهدج تكاد أن تبكي:

«لن أنسى هذا أبدًا لصباح، فبرغم محاولتي ثنيها عن إخبارهم، إلّا أنها كانت متعنتة برأيها، حتى أنها أتت بنفسها معهم لتدلهم عليك».

فقلت لأهدئها :

«لن أنسى كرمكم معي ما حييت، أنا مدينة لكم بحياتي».

أنارت وجهها ابتسامة وقالت:

«أنت لا تعلمين بمقدارك لدينا يا نور، أنا وعمك جمال كنا قلقين جدًا عليك».

ثم تكمل حديثها وهي تغطي فمها بيدها لتخفي ضحكتها وتقول:

«حتى زيد، لولا أنني أطبقت عليه بكلتا يداي لكان ذهب يقاتل أخاك».

ضحكت، فشعرت بألم في مكان الجرح، فحاولت جاهدة ألّا أضحك، على الأقل لكي لا أزيد من حنق زيد الذي بين الفينة والأخرى، يطل برأسه من الباب ليتأكد أنني بخير. كان زيد يتحدث عن الحادثة كأنها مغامرة كبيرة وأبوه فيها البطل، وما انفك يكررها لكل أصدقائه في الحي ليتباهى بشجاعة أبيه.. وله كل الحق بذلك.

لأول مرة أشعر باهتمام الآخرين بي وخوفهم علي، فحتى خضرا التي أوهمتني أنها أمي لكي تجد من يرعاها في آخر عمرها، لم تبدِ لي هذا الحب الملموس، ولا كهذا الاهتمام الذي رأيته في بيت العم جمال.

كنت أشعر بالخجل من جلوسي على الفراش أنتظر أن يقدموا لي مأكلي ومشربي، حتى أن الطبيب نفسه كان يتحدث على أنني ابنتهم.

في تلك الفترة أحسست بآدميتي، و بأنني كنبيلة وسماح. وأني لي الحق في الحياة، وفي الحلم مثلهما، فقررت أن أدفع نفسي إلى الأمام، وأرصف الظروف أمامي سلمًا، وأصنع مستقبلي الخاص، و أختار كيف وأين ومع من يكون.

استغللت مكوثي في الفراش، لاستذكار ما كانت قد علمتني إياه نبيلة من قبل، ففي كل زيارة لها إلى بيت والدها، كانت تجتهد معي لتعليمي، وكأني صرت نافذتها الوحيدة نحو هوايتها في التعليم، كانت حقًا بارعة، فلولاها لما استطعت أن أصل إلى شيء، فهي معلمتي الأولى، ورفيقة دربي حتى النهاية.

في أحد الأيام بعد مرور أشهر من الحادثة، كنت قد أنهيت فيه قراءة كتاب مدرسي للصف السادس، وقد أبديت براعتي وسرعتي في التجاوب مع كل المواضيع فقالت لي نبيلة :

«ها قد اتممت وعدي، و صرتِ تقرأين وتكتبين، حتى أنك برعتِ في الحساب وجدول الضرب».

أعلم أن ذلك لم يكن سهلاً عليك.

على العكس، أنت ذكيّة ولم أبذل مجهوداً يذكر، حتى أنك تفوقت عليّ في التلاوة.

ذلك لأني عشت فترة في الجامع، وكنت أسمع كثيرًا.

بل لأنك ذكية، وتستحقين أن تنالي شهادة مدرسية.

تنهدت وسألتها :

«هل حقًا أستطيع أن أنال شهادة؟».

أجابتني وابتسامة على ثغرها :

«نعم؛ تستطيعين وستحصلين على شهادتك الثانوية إن أردتِ، من يدري لعلك تكملين الجامعة».

أحقًا ما تقولين؟

نعم، لك حق في التعليم، حتى أنه واجب ديني.

لا أفهم.

فقالت وهي تستعد للرحيل :

«لا بأس، سأعطيك بين الفينة والأخرى بعض الكتب التي ستساعدك في فهم كل هذا».

كنت متشوقة جدًا للبدء في القراءة، ولكتب حقيقية، كالتي حدثتني عنها نبيلة، ولكن سرعان ما خاب ظني، حين أعطتني نبيلة كتيبًا صغيرًا لم يرضِ غروري كطالبة ذكية كما قالت لي، ولكن ما إن أكملت ذلك الكتيب، حتى شعرت بغبطةٍ تملأني، و برغم أنني لم أفهم كل محتواه لكني كنت أشعر بالرضى والأمان، وملأني إحساس بالشكر لها ولكل ظروفي المحيطة بي، شعرت أن لي أمًّا تحتويني، أنا منها وهيّ منّي، تلك هي بلدي وعزائي في كل ما جرى لي.

طـاب جرحـي فقـررت مصارحـة أمـي زهـر عـن نيتي في الحصول على شـهادة مدرسية ، فقد كان حلمًا يزداد حجمه فـي قلبـي. كنت متخوفة جـدًا من ردة فعلهـا ، لكني كنت عازمة على أمري حتى وإن خسرتها بطلب كهذا.

عزمـت ذلـك في يـوم مازلـت أذكـره جيدًا ، كنـا نجمع الجرجيـر الذي تهتم أمـي زهر بزراعته في فناء الدار ، وما إن أفصحـت بطلبي لها حتى رفعت رأسـها نحوي ، فارتعش قلبي خوفًـا حينما ضاقـت حدقتا عينيهـا وهي تتأملنـي ، ولكنها ابتسمت بسرور وقالت :

«وهذا ما كنا نفكر فيه أنا وعمك جمال».

حقًا !

نعم ، لقد فكرنا بذلك بعد ما اخبرتنا نبيلة عن تميزك في الدراسة ، مع أنه ليس لديك أية أوراق لكي نقدمك للمدرسة.

و كيف أحصل عليها.

حدثت سـماح بذلك ، ويبـدو أنها حدثت خالـداً ، ففوجئنا باتصـال منه يخبر به عمك جمال باسـتعداده بالتكفل بكل المعاملات الرسـمية ، وقال إنه سـيضعك باسمه احترازًا على حياتك.

وماذا عن سماح؟

قالت إن أباها أوصاها بك قبل أن يموت، وكذلك فعل مع خالد، وإنك وصيته الوحيدة. لذلك يريدان مساعدتك.

كنت في حالة من الانبهار اللذيذ، فكأن حلمي خرج بين يديّ وأصبح الجميع يشاهده معي، شعرت للحظات وكأنني أتضخم، وأنني صرت أكبر من حجمي حتى وصلت إلى السماء.

في اليوم التالي ذهبت إلى سماح لأشكرها. قرعت باب دارهم، كنت متوترة، حاولت إخفاء ذلك حتى فتحت لي مرام الباب، فرحت بي وذهبت تجري لتبلغ كل من في الدار بقدومي.

كانت تلك الدار دومًا ما تجعلني أشعر بتوعك في معدتي كل ما دلفت من بابها، ولكن بعد أن رأيت الفتاتين تقبلان نحوي بفرح، وسماح تمشي خلفهما وقد تكورت بطنها بحمل جديد، وهي تتبسم أيضًا فرحًا لرؤيتي، تغير في داخلي كل شيء. ورأيت الدار وكأنها قد تبدلت.

استقبلتني سماح بترحاب، وأدخلتني بحفاوة، ومن ثم أخبرتني أنها لم تكن لتقسو عليّ إلا بسبب أم زوجها، فقد كانت محكومة بحكمها.

وكلنا نعلم أنها كانت قاسية وصارمة ومتسلطة جدًا عليها، ولكن الحال الآن قد تبدل، حتى أن زوجها أوصاها

بي وذاك لاتصال نسبي بأسرة زوجها ، ثم اعتذرت لعدم قدرتها على زيارتي بسبب صعوبة حملها وخوفها من فقدانه.

باركت لها ، وشكرتها ، وطلبت منها أن تبلغ شكري وامتناني لخالد ، فابتسمَت كمن تذكر شيئًا وقالت:

«خالد تغير حاله كثيرًا ، وتحسن وضعه في البلد التي هاجر إليها ، وهو لا ينوي الرجوع إلى هنا أبدًا سوى لزيارات متباعدة ، لذلك يا نور ، طلب مني خالد أن أطلب منك شيئًا».

مني أنا ! ماذا طلب؟

أن تسكني دار والدنا وتحييها ، فلا رغبة لدينا ببيعها ، ولا نريدها أن تكون داراً مهجورة ، وليس هنالك من هو أفضل منك يرعى الدار ويحرسها ، فإن أحتاج أحدنا إليها سيجدها على يدك كما تركها والدايّ.

احتاجت أن تناديني أكثر من مرة لتسمع رأيي في الأمر ، فقد كنت في حالة من السرحان اللذيذ ، وكأنني لست معها ، فقد طار فكري إلى الدار وإلى منزل ظننت أن لا رجوع إليه ، دار تحميني ، وأي دار ، إنها دار العم ناجي.

سمعت صوت سماح وكأنها تناديني من بعيد ، ولكني لم أستطع أن أجيب لأن دموع عينيّ المنهمرة كانت كفيلة بذلك.

ودعت سماح وابنتيها ، وذهبت بعد أن أعطتني مفتاح الدار ، ووعدتني بمبلغ شهري للصرف منه على احتياجات الدار

وحاجتي، حاولت أن أرفض وذكرت لها أنني أعمل لدى بيت العم جمال، ولكنها قالت وهي مبتسمة :

«لا تنسي أنك أرملة والدي، وهذا حقك علينا».

أعطتني المفاتيح بعد أن باركت فكرة تعليمي، مع أنها لم تكن متحمسة لها، ثم ودعتها وذهبت إلى (داري).

مازال كل شيء كما كان، عدا خلو البيت من ملابس العم والعمة. تفقدت غرف الدار غرفة غرفة. ضممتهم، شممت عبق الفرش واصطبغت بنور الشمس المصطبغ بزجاج القمريات الملونة، كنست الدار ونفضت منه أحزان السنين، ومسحت على أسطح الذكريات الحبيبة لتبرق من جديد.

وبعد أن انتهيت ذهبت إلى دار أمي زهر لآخذ ملابسي ولأودعهم على أن آتيهم كل يوم.

وأنا في طريقي إليهم مررت بمكان الحادث، ببقعة كادت أن تكون مكان موتي، فجعلتها ميلادي، وها أنا اليوم وقد اخترت اسمي، واخترت طريقي ووجهتي... فإلى أين ستأخذني الأقدار بكل تلك الإرادة التي امتلكها ....

كانت أحلامي كبيرة في نظري يومها ، فدخول المدرسة لا حلم أكبر منه في وقتها ، فمجرد أن أتذكره الآن يغمرني الفرح، فبرغم كل ما واجهته فيها من صعاب، إلّا ان صبح ذاك اليوم كان الأسـعد في حياتي، لبست ملابس نبيلة القديمة ، لبسـتها كما كانـت تلبسـها ، حجاب أبيـض ومعطف أزرق طويل، وحقيبة مملـوءة بالكتب والدفاتر والأقلام الجديدة ، علقت حبلها الطويل على كتفي، وخرجت لنبيلة التي تنتظرني عنـد البـاب، كنت أشـعر بالخجل من خروجـي دون لثامي، أخبـرت نبيلة أنني رأيـت الكثير من الطالبات يرتدين النقاب ولكنها قالت لي لتقنعني:

يحـق لـك أن تجربي الخيارين، وتحكمي بعـد ذلك. لقد كنت مجبرة على اللثام لذلك أنت محرجة ، وسـأجبرك اليوم أن تخرجـي بدونه، لكي تكوني بعـد ذلك، صاحبة قرارك ولست ملزمة عليه.

سُـجلت في مدرسـة قريبـة من الحـيّ؛ وهذا ما سـبب لي المشكلة.

كنت في السادسة عشرة من عمري، لم يكن فارق السن كبيراً بيني وبين زميلاتي، فقد كانت هناك طالبتان في مثل

عمري، إحداهما معي في الصف، والثانية في الشعبة الأخرى، لذلك لم يكن فارق العمر عقبة، فقد استطعت أن التحق بالصف الثاني من المرحلة الإعدادية؛ بعد أن وعدت الإدارة أن انضم في نهاية العام، للاختبارات الوزارية لنهاية المرحلة الابتدائية، وفعلاً دخلت في الاختبارات واجتزتها بنجاح.

لم أكن أستطيع الصمود لولا تشجيع ومساندة نبيلة لي، فهي لم تبخل على لا بجهدها، ولا بوقتها، واهتمامها بكل تفاصيل أيام دراستي. صحيح أن نتائجي لم تكن عالية، ولكني كنت مجتهدة بما يكفي للنجاح.

كانت المرحلة الاولى في السنة هي الأصعب، فإضافة إلى تراكم العلوم والمعارف التي وجدت نفسي مرغمة على التمكن منها، إلا أنه كان هنالك معارك نفسية أشد وطأةً علي، فقد كنت معروفة لدى أغلب الأسر التي تعيش قرب المدرسة، لذلك واجهت رفض بعض الأهالي في وجودي مع بناتهن في صف واحد.

لم يكن ذلك واضحًا للجميع، لكنه كان يتضح لي أنا على الأقل، في همزات ولمزات زميلاتي، و أحيانا معلماتي. لعله لم يكن ليدركها أحد سواي، لكنها كانت تهدمني لحظات، وتبنيني في لحظات أخرى. اكتشفت فيها قوة عنادي وتحملي، وذلك ما استفز البعض، ومع الوقت بدأت نتائج عدم

انكسـاري تظهر جلياً بتنمر بعض الطالبـات، بل والمعلمات أيضًا.

كنـت أوضع في مواجهات شرسـة أحيانًا، لكني كنت أتعاماها وأغض الطرف عنها.

لكن في يوم من الأيام، طلبت مني زميلة لي في صفي أن اسلّم ظرفًا لأحد الشباب الواقفين على باب المدرسة، وعندما رفضت؛ لم يعجبها موقفي، فقررت الانتقام قبل أن أتجرأ وأشي بهـا، مـع أنني لم أكن لأفعل شـيئًا كهـذا، ولخوفها ذهبت لوالدتهـا وقالت لها بأنني أنا من طلبـت منها أن تكتب لذلك الشاب، وأنها رفضت، بل وقالت إنني كنت أهددها به.

فاتصلـت والدتهـا لإحـدى المعلمـات التـي ما أن سـمعت باسـمي، حتـى تمـادت بتوبيخـي أمـام الجميع، والاسـتهزاء بـي وبوضعي الاجتماعـي، فراحت تخبر الأمهـات وجميع من استطاعت أنني أسكن وحدي، وقد يكون ذلك إخلالًا بسمعة فتيات المدرسة. زاد شعور الوحدة والغربة لديّ عندما لم يقف معـي أحد من المعلمات والزميـلات، ولم يدافع عني أحد في المدرسة.

خشـيت أن يصـل هـذا الامـر لمسـامع عمي جمـال وأمي زهر، وأنا أعرف أنهما سـيدافعان عني حتى وإن خسـرا كل معارفهما، فما أحببت موقف كهذا أن يحدث بسببي.

فشكوت وضعي إلى نبيلة التي كانت مشغولة في التجهيز لولادتها تلك الأيام، فطاوعتني، وأخبرت الإدارة عن طريق إحدى معارفها بأنني سأنتقل من المدرسة في نهاية العام، ليكفوا عن أذيتي.

لم تكن نبيلة راضية بهروب كهذا، ولكني أقنعتها بأن ذلك ليس هروبًا وإنما للاحتفاظ بقوة داخلية تدفعني نحو حلمي الكبير.

انتقلت إلى مدرسة أبعد قليلاً، كانت مدرسة أكبر، وفيها المنافسة أشد، فازددت عزمًا، وكنت لا أتوقف عن المذاكرة، وجعلت وقتي كله للدراسة حتى في الإجازات، فتميزت في المدرسة، وأنهيت الثانوية وأنا في الواحد والعشرين من عمري و بعلامات ممتازة.

كانت تلك الفرحة أكبر من أن تسعني وحدي، فجمعت بها كل من أحبني وساعدني لأصل إليها.

أتذكر سماح حينما فاجأتها بمعدلي، فلم تتمالك نفسها من الفرح، فسمعت منها زغرودة، رأيت فيها وجه العم ناجي وهو مبتسم.

احتفل بي الجميع، فلم يكن أحد يتخيل أن نور ابنة الشارع، تستطيع الحصول على معدل عال كهذا، حتى أن العم جمال أهداني سلسلة من الذهب، وتعليقة جميلة محفور فيها أول

حرف من اسمي.

أمّا نبيلة فكعادتها هداياها دومًا ذات منفعة دائمة، فقد أعطتني ساعة جميلة، ذات قيمة عالية، استخدمتها حتى بعد إتمام الدراسة.

أصرّت سماح مدفوعة من خالد؛ بإقامة احتفال بالمناسبة، حضرت فيها أمي زهر، وكذلك نبيلة مع طفلها الصغير بكيل. كان يومًا سعيدًا فقد كان أول قالب حلوى يكتب عليه اسمي.

في ذلك اليوم، أصرّت نبيلة أن تجلس معي بعد مغادرة الجميع، وحينما انفردنا، أدركت أنها أرادت توصيتي بإكمال الدراسة، وأن لا أتوقف، حتى أنال شهادتي الجامعية، وأنها ستقف ظهرًا وسندًا لي، وستحث والديها على مساعدتي تكفيرًا لذنب تزويجهما لها قبل إنهاء دراستها، فسألتها :

«وما الذي يمنعك الآن؟».

تنهدت وابتسمت ثم قالت :

«لقد فقدت الرغبة بالدراسة والعمل؛ حين أنجبت بكيل».

كان بكيل يغط في نوم عميق، يرقد كالملائكة على حجرها، نظرت نحوه فابتسمت حبًا وقلت:

«سيكبر يومًا».

أقصد أنه سيكبر، ولن يحتاج كل رعايتها ولكنها فاجأتني وقالت :

«لا أريده أن يكبر وحيدًا ، أريد له إخوة».

ازدادت ابتسامتي حين تخيلت ذلك، ثم وجهت بصري إليها وقلت:

«كم أتمنى ذلك».

أنا نفسي اختلط علي الأمر، فلم أفهم أمنيتي، هل كانت أن يكون لبكيل إخوة أم أن يكون لي أطفال كثر.

مرت الفرحة سريعًا ، واقترب الاختيار الأصعب، اختيار من سأكون، فليس من السهل اختيار الباب الذي سيدخلني إلى حياتي الجديدة.

قررت الأخذ بآراء الجميع، ذهبت لسماح، كان محمد في الثالثة من عمره. أذكره وهو يجري مقبلًا نحوي، يمد يديه ليلتقط الحلوى من يدي ثم يمضغها ، وأنا أنظر بشغف، كان يشبه العم ناجي بشكل مضحك، فلكم أن تتخيلوا معي كيف للعم ناجي أن يكون طفلاً ويمضغ حلواه أمامي!

أحببته كثيرًا ، وكنت كلما مررت بهم لابد أن اشتري له لعبة ما ، او أي شيئًا يجعله فرحًا بقدومي، ولكي أسمع أيضًا اسمي الذي اختزله بحرف النون في فمه الصغير.

جلست يومها مع سماح نحتسي القهوة، سألتها عن مرام وعن صفية وكيف استقبلن نتائج المدرسة.. فقالت :

«حمدًا للّه أنك كنت معي يا نور، ولولا اجتهادك معهن لرسبن هذا العام.

حمدًا للّه أنهن أحسسن بالمسؤولية، فلقد رأيت من صفية استهتارًا عجيبًا بالدراسة، فهي على رغم ذكائها إلّا أنها ليست كمرام مثابرة.

الأهم كيف سيكون محمد، فهو من لا بد له من الاجتهاد، أما هن سيرجعن إلى المطبخ.

لماذا تقولين ذلك يا سماح، إن سمعتاك؛ أهملتا دراستهما.

سيتزوجن يا نور كما غيرهن، وينسين الدراسة وكل ما فيها.

دعينا منهن الآن، فما يزال أمامهنّ الكثير، ماذا عنكِ أنتِ؟ ماذا ستختارين من تخصص في الجامعة؟

الحق أنني محتارة جدًا.

أنصحك بكلية العلوم، فقد سمعت أن بعض من بنات جاراتنا يدرسن فيها، حتى أن مبناها ليس ببعيد.

لست أدري، فاختيارٌ كهذا صعب جدًا بالنسبة لي، فلم اتدرج في سنوات التعليم لأكوّن طموحًا معينًا، أنا لم آخذ

وقتي الكافي للتفكير بفرصة كهذه.

نظرت نحوي سماح وابتسمت ثم قالت:

«أكنت تحلمين بيوم كهذا؟».

تفاجأت من السؤال، لكني أجبتها بدون تردد:

«لا، ولم يكن في أحلامي، فقد كان أكبر طموح لي أن أتعلم القراءة فقط».

وما شعورك الآن؟

اكتفيت بالابتسام لسماح وقلت بيني وبين نفسي:

«(شعوري كأنني إلهة قدري)».

كان معدلي الثانوي يدخلني أي تخصص أريده؛ مما وضعني في حيرة شديدة. حاولت طلب المساعدة من الجميع، ولكنهم زادوني حيرة. مثلاً العم جمال نصحني بالتجارة والاقتصاد، وأمي زهر نصحتني بالتسجيل في كلية التربية والتعليم، لاعتقادها أن المرأة من الأنسب لها أن تعمل في وسط به نساء.

أما نبيلة فقد أشارت علي بالآداب لعلمها بحبي للقراءة، وسماح نصحتني كما سبق بالعلوم لما لمست من موهبتي فيه حينما كنت أذاكر لمرام وصفية. وطبعًا لقرب الكلية أيضًا، ولأن فتيات الحي يدرسن هناك.

جميعهم زادوني حيرة على حيرتي، إلى أن جاء اليوم الذي

رن به هاتف المنزل ليحدثني خالد من الجهة الأخرى من العالم.

«آلو..».

نعم، من المتصل؟

أنا خالد ، أنتِ نور؟

نعم.

مبروك يا نور..

شكرًا لك.

أخبرتني سماح أنك متحيرة في اختيار تخصصك الجامعي، أليس كذلك؟

نعم، مازلت حائرة.

كان حلم خضرا ، أن تكون طبيبة ، ألا تجدين في نفسك رغبةً في دراسة الطب؟ ولي معارف وأصدقاء سيساعدونك في تقديم أوراقك وقبولك في الكلية ....

الطب !.. ليس لأجل خضرا ، ولا لأجل حب خالد لخضرا ، ولكنه التخصص الأقرب إلى تكويني، مع أنني أعلم أنني سوف أجد صعوبة في التقديم إلّا أن كل شيء ممكن، وتخصص كهذا هو الأجدر بالاحترام.

تم قبولي في كلية الطب، كان الجميع فرح باختياري، حتى أن العم جمال تكفل بالتدبر بمواصلاتي إلى الجامعة.

مرّ شهران وبدأت الدراسة لم تكن سهلة أبداً حتى أنني اضطررت لإعادة اختبارات السنة الأولى مرتين، وقد كانت المذاكرة تتطلب مني كل وقتي وجهدي.

لم تكن النقود تكفيني لشراء الكتب التي أحتاج إليها، فكنت أذهب إلى مكتبة الجامعة لأحاول الحصول على أغلب ما احتاجه دون أن أشتريه، وحين لا أجد، كنت استعير من معلميّ وزملائي، وبظرف وقت قصير حصلت على احترام وتقدير الجميع حينما لمسوا جهدي ومثابرتي.

مرت السنوات، وأكملت الدراسة النظرية وبدأنا بالتطبيق.

كان تطبيقي في مستشفى تعليمي بعيدًا عن مكان سكني، لذلك واجهت بعض الصعوبة في المواصلات.

فقد اكتشفت أن بعض العامة من الناس، يمنعون بناتهم من الجامعة، لمجرد وهمهم بانفلات الطالبة الجامعية أخلاقيًا.

وفي أحد الأيام وأنا في الجامعة حصل تغيّر في الجدول، فكان لا بد لي أن أستقلّ حافلة تتجه إلى المستشفى التعليمي الذي أطبق به.

لم أكن خبيرة في استخدام المواصلات. ولكنها لم تكن تجربتي الأولى، فقد ذهبت بها مرات برفقة بعض الزميلات. وقفت في مطلع الشارع ورفعت يدي طلباً لحافلة كما هو متعارف عليه.

لم أنتظر كثيرًا حتى توقفت حافلة صغيرة أمامي فسألت السائق عن وجهته لمجرد التأكد، فأكد لي الوجهة المبتغاة فصعدت. كانت الحافلة صغيرة، كرسيان عريضان متقابلان، يجلس على أحدهما رجل معه امرأة مغطاة بكامل جسدها عرفت فيما بعد أنها زوجته، وبجواره رجل يلبس قميصًا مخططًا باللون الأزرق، أشعث الشعر مهترئ الهيئة، يبدو وكأنه استفاق للتو من نومه، وفي الكرسي المقابل الذي جلست عليه كان هنالك شخص يبدو في الثلاثين من عمره يلبس ثوبًا أبيض لامعًا ومعطفًا أسود من الجلد، وفي يده خاتم فضي، رأيته حينما كان يلوح في وجهي فيما بعد. أما في المقطورة الأمامية بجوار السائق فيجلس رجلان، لا أذكر هيئتهما، ولكنهما يبدوان صديقان فقد ركبا معًا بعد صعودي إلى الحافلة.

وبينما أنا منهمكة في البحث في حقيبتي عن المبلغ المطلوب لركوب الحافلة، شعرت بيدٍ تزحف إلى وراء ظهري، انتفضت بفزع، ورأيت صاحب المعطف الجلدي ويده تختفي خلفه، و يمسح على شاربه الأجعد بيده الأخرى وينظر إلى خارج الحافلة، ويشير لي بأن أنزل، استفزتني قباحته وظنه السيء بي، فظننت أنني بكشفه للناس وبفضحه أمامهم سوف أجعله يخجل من نفسه، ويكون ذلك له درسًا قاسيًا. ظننت أن

جميع من في الحافلة سيطردونه ليصبح عبرة لغيره من الناس. كنت واثقة جدًا منهم ومن نفسي، ومن أن الحق معي، ولكني فوجئت باستهجان الجميع من تصرفي أنا! حتى أنهم وافقوا أن أترك الحافلة بعد ما سمعوا قول الأشعث ذي القميص الأزرق، حين قال لي بلهجة لا تخلو من استحقار:

لو أنك محترمة؛ ماكنت تغادرين منزلك يا امرأة..

يا امرأة! هكذا قالها، وكأنها إحدى الشتائم!

بأي منطق يفكر؟ وكيف لمن مثله وبهيئته المهملة؛ أن يتكلم عن فتاة جامعية بهكذا أسلوب؟ وكيف يظن نفسه أجلّ قدرًا من التي ولدته؟!

ظننت أن الرجل الذي بجواره سيقول شيئًا لصالحي على الأقل لأجل المرأة الجالسة بجواره، لكنه صعر خدّه وقال:

غطي وجهك أولاً، ثم اشتميه.

التفتّ إلى السائق لأرى موافقته على ما يحصل، ففاجأني بإيقافه للحافلة على جانب الطريق، وكأنه يطلب مني النزول.

نزلت من الحافلة على الفور، أكملت مسيرتي مشيًا إلى المستشفى.

مررت بقصص كثيرة، وحكايا مثيرة، في فترة تطبيقي تلك، ولكن ما كان يؤسفني حقًا، هو مدى جهل الناس

واستخفاف البعض منهم بالعلم، فبرغم وجودنا في عالم التلفاز والراديو آنذاك، إلّا أن الجهل كان مستشريًا، فلماذا يكثر الجهلة في بلد يتعلمون فيه بالمجان؟ ألأن المتعلمين لم يعرفوا قيمة ما حصلوه من العلم؟ أم لأن ما حصلوه من العلم لم ينل احترامهم، فهو لن يكفيهم قوت يومهم؟

أدركت أن لا فائدة من علم بلا وعي، ولا لوعي بلا أخلاق، ولا لأخلاق بلا حكمة.

فقد ارتبكت أخلاق الناس عند مواجهة انفتاح عصري في بيئة بسيطة ثقافيًا.

فكان انفتاح توجّه ليدعم صحوة دينية مبتدعة، فتهاوت القيم، وتلاشت المبادئ، وحُرفت العقائد، وساعد في ذلك الفساد السياسي والظلم المجتمعي.

مضت الأعوام سريعًا وصرت في الثامنة والعشرين من عمري. و أنا الآن (الدكتورة نور).

احتفل بي الجميع، وحصلت على مكالمة من خالد يبارك لي فيها بنجاحي، ويدعوني أن أكمل تعليمي عنده في بلاد المهجر، سررت بعرضه، ولكنني اعتذرت.

تم تعييني في المستشفى الأقرب إلى الدار، ذاك الذي رأيت به خضرا، وكذلك هو المستشفى الذي توفى فيه العم ناجي.

مررت بممراته ترافقني ذكرياتي وكأنها منصوبة أمامي.

هنا كنت أجلس، تحت هذه الشجرة وسألتني خضرا عن اسمي، وعرفت أن اسمي نور، وهناك كان العم مستلقيًا في آخر مرة رأيته فيها ...

من هنا خرجت باسمي لأول مرة، وعدت الآن إلى نفس المكان وقد اضفت له لقبًا يرفعه.

العم ناجي وخضرا معي هنا، أحملهم بذاكرتي، فلا يموت الناس حقًا إلا بتلاشي الذكريات.

تذوقت السعادة الآن يا خضرا، أتذوقها وذكراكِ معي كما وعدتك.

لا شك أنها تستحق العناء، تستحق أن نعود لها من الموت، حتى وإن كافحنا أنفسنا لنجدها.

شعرت بيدٍ على كتفي تطلب مني الالتفات. التفت ورأيت طبيبة خضراً، كانت ترحب بي، وتصف لي عملي، وأين ستكون عيادتي، وتعرفني على بعض زملاء وزميلات العمل. لم تكن تعلم في ذاك الحين من أنا، ولم تدرك أنني ابنة خضرا إلا بعد ذلك.

ابتسمت نحوها وفكرت، ترى ماذا تحمل لي الأيام أكثر؟ هل سأكتشف أكثر مما رأيت؟ هل أنا الوحيدة التي تغيرت حياتها هكذا من حال إلى حال؟

مرت عليّ أيام مرهقة، كنت أبذل فيها قصارى جهدي

لأفي مرضاي حقهم، ثم أعود إلى الدار وحيدة، أكسر وحدتي بزيارة لسماح وأسرتها، وكذلك لم أكن لأقطع زياراتي لأمي زهر وأبي جمال، ولنبيلة.

سأروي لكم حادثة ثبتت في ذاكرتي، وأجد بأنها فاتحة جيدة لأدخلكم معي باب النهاية. كنت وزميلتي نعاين بعض المرضى في عيادة واحدة، فصارت مناوشة بين مريضي ومريضها بعد استهزاء أحدهما من لهجة الآخر.

استغربت، كيف لأمر كهذا، أن يثير ذلك الجدال الموجع الذي انتهى بمعركة جسدية، فاضطررنا لاستدعاء الأمن لفض الشباك.

لم أكن أعلم أن الناس بدأت تشكل فجوات فيما بينهم، بداعي اللهجة أو المنطقة، أو الفكر السياسي، فهذا من حزب ذاك، وذاك من حزب هذا، وكأنهم ليسم فوق أرض واحدة.

فعلى الرغم من تعدد لهجاتنا، إلّا أن أغلب مفرداتها واحدة، وعلى اختلاف درجات ألوانهم، إلّا أن ملامحهم تنزوي بعيون يمانية، أمّا قلوبهم حتى وإن تشكلت، إلّا أنها أفئدة وسمت باللين والرقة، فلماذا تدحرجت عزائمهم تحت ألوية أخرى؟

أصبح الناس في حالة هرج ومرج، كل منهم يفتي من جهته، يريد أن يثبت وجوده في وطن يراه ظالمًا ولا يعطيه

حقه. عقول لم تجد من يقبلها؛ فصارت تائهة في عوالم عقيمة، وأموال نُزفت في غير محلها، وسواعد هاجرت تبحث عما يسد جوع أفواهها.

كثرت الآراء، وتوسعت تلك المناكفات حتى أن الدين دخل فيها، فلكأن الدين أتى ليفرقهم لا ليجمعهم، ويستدلون بما طاب لهم من أحاديث و سور، دون الرجوع إلى فحوى قولها، أو صحة تفسيرهم لها، فأنا أعرف أغلب من يتحدث أمامي، وأعرف ثقافتهم البسيطة المعتمدة على مسلسلات أو برامج تلفزيونية، اعتمدت على أشخاص وجدوا ليأججوا تلك الفتن، ولي ذكرى مزعجة بسبب تلك التوجهات الدخيلة، والتي أثرت على علاقات كانت دومًا ما تتسم بالعفوية والبساطة.

ففي يوم من الأيام، كنت ذاهبة لأزور أمي زهر، ففتح لي زيد الباب ٍوقد صار في التاسعة عشر من عمره، فرحت به كعادتي، ودخلت وأنا امتدح قامته، ولكنني فوجئت بتجهمه وعدم رده علي، ثم توجه إلى غرفته مقطب الجبين يضرب على كفيه وينادي أمه.

حزنت من تصرفه معي فشكوته لأمي زهر فقالت :

«لا عليك يا ابنتي، زيد لم يعد كما كان، قد تغير كثيرًا كبقية أهل الحي منذ أن تبدل إمام الجامع.

ولماذا تغيروا؟

الشيخ يقول لهم إن النساء حرام.

وكيف تكون النساء حرام ؟!

وجوههن، أكفهن، أصواتهن، وكل شيء فيهن حرام، حتى أنه لا يريدني أن أخرج من البيت، لولا وجود عمك جمال لكنت سجينته، أشفق على من ستتزوجه.

عجيب أمر هذا الشيخ، ومن أين له كل هذا التأثير على شباب الحيّ!

عدت إلى الدار بعد ذلك النهار ضائقة وكئيبة الخاطر، فتحت التلفاز، وتمنيت لو أنني اشتريت ذاك الطبق الكبير الذي يضعونه على الأسطح، لتكون لدي أكثر من قناة تلفزيونية، كالتي رأيتها عند سماح، فقررت أن أذهب لسماح وأسألها عن (الستلايت) لكي أشتري واحدًا.

لم أستطع الذهاب في اليوم التالي لانشغالي، فقررت تأجيل زيارتي لها إلى نهاية الأسبوع، ثم فكرت أن أدعوها للإفطار بحجة أن تزور بيت أبيها وتتفقده.

اتصلت بها ودعوتها لصباح الجمعة، على أن تأتي مع زوجها والأولاد لإفطار دافئ.

رحبت سماح بالفكرة، وعرضت عليّ المساعدة، ولكنني عزمت على تجهيز كل شيء بنفسي.

وجاء يوم الجمعة وابتدأت بتجهيز كل شيء من بعد صلاة الفجر، فطيرة (السبايا) عروس سفرتي بالطبع، فلا استغناء عنها في يوم الجمعة، وكذلك الخبز الحار وفول وفاصوليا وجبن وبيض، والشاي الساخن، والقهوة المحمصة.

جاء ضيوفي في موعدهم كما تمنيت، كان يومًا مبهجًا بحق، تذكرنا فيه الزمن الماضي ونوادر العمّة مع العم ناجي. لاحظت أن صفية هي الأكثر شبهاً بالعمة، وحمدًا لله، لا أحد من أبناء سماح يشبه أم زوجها.

سمعنا المؤذن يكبّر للجمعة، وضعت الفحم المشتعل على المبخرة والبخور عليه، وأعطيتها لسماح لتبخرهم قبل الذهاب إلى الصلاة، كان زوجها يستعجل محمد الذي كان يتسلل، وهو يحتفظ بما أمكن من القطرات في يده إثر وضوئه، لينفضها على صفية التي ما أن أحست بقطرات الماء عليها حتى انتفضت تصرخ، ثم تجري نحوه، تريد مسح وجهها بوشاحه الذي على كتفيه، كان يجري ويضحك، وهي تتوعده.

اعتلت على وجهي ابتسامة سعادة، فما أجمل الدار بهم، فلكأنهم أبناؤها وأنا الغريبة عنها.

لاحظت كم كبر محمد، فذكرت زيداً وموقفه الأخير منّي، فأصابني القلق أن يتغير عليّ، وأصير يومًا من الأيام عليه أجنبيةً، ويتحاشاني كزيد.

وما أن جلست مع سماح نحتسي القهوة، حتى أخبرتها عن مخاوفي، وعن إمام الجامع، وعن تغير زيد ابن العم جمال.

فقالت :

«لا تخافي على محمد ، فأبوه حريص عليه أشد الحرص، ففي كل شهر يأخذه إلى حلقة علم يديرها شيخ أسرتهم.

حقًا !

نعم، حتى أنا والبنات، نواظب على دروس نسائية.

عجيب، إنها المرة الأولى التي أعلم فيها عن حلقات علم نسائية.

نعم، فوالدة زوجي كانت ترتب هذه الحلقات في العادة.

ولماذا لم تحضرها العمة، أو حتى أنا؟

لا ، لا يمكن لك ولا لأمي الحضور. هي فقط لنساء أسرتهن فقط.

وهل تستفدن منها؟

بالطبع، ولنعرف من هم أعداؤنا ، وأحبابنا.

وهل لنا أكثر من عدو؟

بالطبع.

عجيب، ظننت أنه شيطان واحد.

شياطين الإنس والجن يا عزيزتي كثر.

ومن هم؟

كثيـر يا نور. دعينا من هذا الـكلام الآن، أخبريني متى ستشترين (الستلايت)؟

وفـي اليوم التالي ذهب معي محمد لنشـتري الجهاز، وأتى به العامل ليركّبه في الدار، أشـرف محمد على العامل، ولم يرحل إلّا بعد أن جرب القنوات معي، وعلمني كيف أستخدمه.

تعـددت القنوات والضجـر واحدٌ، فقد بهـرت به في بادئ الأمـر، واسـتمتعت بالكثيـر مـن الأفلام، ولكني سـرعان مـا مللت، لذلك فكرت بالابتداء بالدراسـات العليا، جمعت أوراقي وسـجلت في الجامعة، فما حصلـت عليه من تقدير لا يمنحني منحة خارجية، ولكن لي أمل في ذلك قريب، وفعلًا ما أن سمع خالد بتقديمي للدراسات حتى اتصل بي، وأخبرني أنه مسـتعد لمساعدتي، وأنه سيطلب لي تأشيرة زيارة، كي أزورهم وأتعرف على البلاد التي من الممكن أن أكمل تعليمي فيها.

تـرددت كثيرًا فـي الموافقة، ففكرة الخـروج من وطني تخيفني، فلست ممن يهوون السفر، حتى أنني أخاف الطائرات، ولكن شغفي في التعلم وعدم إيجادي لشغف آخر جعلني أوافق. فما المشكلة بزيارة تجريبية لأرى فيها بلدًا مختلفًا.

كنت قد درست في الجامعة باللغة الإنجليزية، وقد كانت

تلك أصعب مواجهة واجهتها في الدراسة، تعبت كثيرًا حتى استطعت الإلمام بما هو هام، واحتفظت بلغة ضعيفة بالكاد تصلني إلى معلوماتي ومصطلحات الطب الضرورية، حتى أنني أتحاشى التكلم بها، خصوصًا بعد أن سمعت أصحاب اللغة كيف يتحدثون بها.

لذلك طلبت من خالد أن يسجلني في معهد لغة، كي أبدأ بالتعلم هناك.

جمعت كل مالي ومرتباتي المدخرة، لكي أشتري تذاكر السفر، لكنني فوجئت بأن خالداً قد اشتراهن وأرسلهن.

ودعت أمي زهر وهي تبكي، كنت أطمئنها أنني سأذهب لشهر واحد، ولكنها لم تصدق.

ودعت سماح والبنات وكدت أبكي أنا، ثم تذكرت أنني سأذهب لمدة شهر واحد. أهدتني سماح بعض الأحذية، وزودنني البنات ببعض ملابسهن التي استخدمنها في زيارتهن الأخيرة هناك.

تعلمت تنسيق الألوان والملابس من صفية، وكذلك الماركات، حفظتها عن ظهر قلب؛ فقط لأرضي صفية وأطمئنها أنني سأشتري لها ما تحب من رحلتي، انتبهت أن مرام صارت شابة جميلة على مشارف الزواج، أدركت كم مضى من عمري دون أن ألتفت إلى وجهي وتفاصيل جسدي،

هل فاتني أحد أحلامي دون أن أنتبه؟ هل مازال أمامي الوقت؟ وهـل معي من الحظ ما لـدى الأخريات؟ تذكرت رأي خضرا بالزواج، وتذكرت معاناتها في زواجها من أبي. طفلة صدمت بواقـع يكاد يكون مخيفًـا لمن هي في عمرهـا ، وأي امرأةٍ أمي، تلك التي زجّت بطفلة إلى زوجها! وكم كان عمر أمي آنذاك؟.. أسـئلة كثيرة عشـت بها وسـأعيش عليها ، فكلّما وصلت لجواب ما ، تكاثرت الأسئلة ، وكأنني جئت إلى الدنيا لأفك شفرات جهلي بي.

تتابعت الأيام سريعا وحان يوم السفر. أوصلتني نبيلة بسيارتها وسائقها إلى المطار. ودعتها بعد أن شرحت لي كيف أتصرف إن تهت هناك.

دخلـت المطار، وتخطيت البوابـة الأولى، ومن ثم انتظرت وصول طائرتي، لم أكن وحيدة فالكثير ينتظر معي، و أثناء انتظاري سـمعنا صوتًا ينادي المسـافرين إلـى مصر، فرأيت عائلات وأفرادًا يدخلـون البوابة المتجهة نحو الطائرة، كان أغلبهم تبدو على محياهم علامات المرض والتعب والشـقاء، تمامًا كالمرضى الذين أراهم في المستشفى، وأظنهم ليسوا سـوى من بؤسـاء هذه الأرض الذين فقدوا الأمل في موطنهم، فجمعوا كل ما لديهم في الدنيا يبحثون به عن دواء في أوطان أخرى، ليرجع البعض منهم أما بصحة جيدة دون مال، أو دون

مال ولا صحة، او يحملُون على الأكتاف.

وأخيراً سمعت نداء طائرتي، ركبت الطائرة وأنا مذهولة من كل شـيء أمامي، النـاس والمضيفـات، وطاقم الطائرة وجناحها، وقرب الناس مني في كراسيهم، أناس لا يشبهون من نراهم في المستشـفيات وليسـوا كالذين رأيتهم مسـبقًا في المطار ولا في الشوارع، هم يشبهون خالدًا وسماح ونبيلة.

وصلت الطائرة بعد سـفر طويل أمضيته وأنا اقرأ قاموس اللغـة؛ بحثًا عن كلمات قد أحتاجها في وجهتي. ونزلنا أخيرًا من الطائرة نهنئ بعضنا، يجمعنا شعور موحد بفرح الوصول، ومتعة السلامة.

عرف البعض منهم أنها سفرتي الأولى فساعدوني، وتبعتهم كما نصحتني نبيلة، حتى وصلنا إلى الحقائب. أخذت حقيبتي بعد أن رفعها شـاب وسيم كان مهتمًا بترجمة كل ما يصعب عليّ فهمه، ولم يتركني حتى وصلنا إلى المخرج.

رأيـت خالدًا يقـف بانتظاري، مازال علـى نفس هيئته عدا بعض شـعيرات بيض تروم مع شـعره الأسـود الكثيف. كان خالد يليق بكل الأماكن أينما حل، كان يلبس قميصًا أزرقًا بياقة مخطوطة بخط أبيض دقيق على حافتها، وبجواره شاب عشريني عرفت أنه ابنه ماجد.

لا أدري كيف عرفني خالد، ناداني فذهبت إليه، سـلمت

عليهما وتعجب ماجد كيف عرفته، فأخبرته بمتابعتي لصورهم التي يرسلونها لسماح.

لم يأخذني خالد إلى بيته كما توقعت، بل كان قد استأجر لي شقة صغيرة قريبة من بيته، كنت خائفة في البداية، شعر خالد بذلك، فأخبرني أن منطقتهم راقية جداً، ولم يسبق لأحد أن تعرض للأذى فيها.

لا أستطيع إخباركم عن جمال الطبيعة هناك، كنت أشعر أن عينيّ اغتسلت لأول مرّة. الأشجار الكثيفة الخضراء، والشوارع المنبسطة المرسومة بالأرصفة، عمدان النور الأنيقة وهي تقف منحنية الرأس للقادمين، والناس بملابسهم المنسقة وسياراتهم اللامعة، كل شيء كان وكأنه حلم.

وصلنا إلى الشقة، كانت غرفة أنيقة بها حمام صغير، ويوجد في طرفها شيء ما يشبه المطبخ. كنت كمن يحلم، أو كمن دخل إلى شاشة التلفاز، أو ألقي إلى مجلة أزياء كالتي كانت تتصفحها نبيلة وهي تختار ثوب زفافها. كان السرير فائق الراحة، مفروشًا بملاءة بلون سماوي، مرسوم عليها أوراق شجر بالبني الفاتح، وستارة النافذة تحاكيها في اللون. نافذة الصالة تطل على الشارع الخلفي، يقابلها فناء منزل به مسبح صغير مزروع على لوحة عشب أخضر. وفي يمين المسبح، طفل يبدو في الثانية مع والدته يلبسان ملابس السباحة، شدني

المنظر، شعرت بعاطفة قوية نحو الطفل، فقد كان يضحك بمرح، بينما والدته تمسك به بإحكام، تكلمه كأنها تحدث شابًا يافعًا وتنظر لحركاته الطفولية بوجه بارد. كان يضحك ويصفع الماء بيديه فيرتد الماء إلى وجه أمه، ومع أن تعابير أمه جادة وحازمة، لكن ذلك لم يمنعه من تكرار صفعه للماء مرات ومرات، توقعت من ملامحها أن تصرخ عليه، أو أن تضحك، أو حتى تبتسم له، ولكنها كانت محافظة على تعابيرها المتجمدة. شعرت بالرأفة على ذاك الطفل، إلّا أنه استمر في صفع الماء وهو يضحك، فقد كان يشعر بثقة قوية بحب أمه له. أغلقت الستارة أحاول أن أجمع مشاعري المتشتتة، فقد شعرت بارتباك وباحتياجي للهدوء.

خلعت ملابسي، وأخذت حمّامًا منعشًا لم أكن أحلم به، فهي المرّة الاولى التي آخذ فيها حمامًا، في بيت حديث له مرش متحرك ومغطس استحمام.

حاولت النوم، فلم أستطع، ولكني نمت ظهر اليوم التالي بعد أن جاء ماجد وأعطاني احتياجات بسيطة للمطبخ.

وفي صباح اليوم الثالث جاء خالد ومعه ابنه الأصغر فؤاد، كان تقريبا في السادسة عشرة من العمر. وكان يرفض الحديث باللغة العربية رغم محاولات خالد المتواصلة معه، فأحسست بصعوبة العلاقة بينهما. أصر خالد أن نخرج معاً

للغداء فسألته عن ليلى، فقال إنها متوعكة ولا تريد الخروج، فخرجت مع فؤاد وخالد بسيارته، و ياله من عالم مختلف، يشبه الجنة التي كنت أسمع عنها في الجامع.

أشار خالد إلى مكان المعهد الذي سأدرس فيه اللغة، وقد كان بعيدًا عن سكني، ولكنه علمني كيف أركب القطار المؤدي إلى هناك، وقال إنه سيأتي غدًا ليصطحبني لأسجل في المعهد بحضوره، وفعلاً اتى خالد على الموعد، وذهبنا على القطار لكي يعلمني استخدامه. كنت مبهورة بكل شيء: الناس، الشوارع، المباني الطبيعة، وكذلك القطار الذي يمشي دون سائق، وصلنا إلى المعهد وتم تسجيلي، حاولت في طريق العودة التركيز على الطريق كي لا أتوه غدًا.

وفي اليوم التالي، تحضرت في الموعد وقد كان عصرًا. خرجت وحدي في بلد غريب لم يمر على وجودي فيه سوى أيام، وفي مدينة كبيرة لست أعرف من لغة أهلها سوى مصطلحات علمية وبضع حوارات بسيطة....

كان القطار (المترو) ممتلئ بالركاب. بحثت بعيني عن أقرب كرسي، فلم أجد ما يناسبني ففضلت الوقوف. تمسكت بأحد العمدان الحديدية المنتشرة في المترو لهذا الغرض. بدأ المترو بالسير وقلبي يزداد خفقانه. لساني يلهج بالدعاء، وعيناي تتجه نحو النافذة بقلق، إلى أن بدأت

السكينة تتسلل إلي بهدوء ..

مبانٍ ضخمة، وشوارع مرتّبة، وبحيرات صغيرة وكبيرة، وأشجارٌ خضراء، ودفء، على عكس ملامح سكانها الباردة! تذكرت الوجوه في مدينتي المليئة بالمشاعر، ملامحهم الواسعة التي تتفاعل مع كل الأحداث، فآمنت أن ملامحنا هي من تعطي للشمس حرارتها. يقطع حبل أفكاري صوت نداء المترو باسم المحطة التالية. تذكرت فجأة بأن عليّ تذكر اسم المحطة التي يجب أن أنزل فيها إلى وجهتي.

نظرت إلى من حولي، وجوه كثيرة وعيون لا تكترث بي، ولا بغرابة ملامحي عنهم، ولا حتى باختلاف ملبسي.

يتوقف القطار وتنفتح الأبواب، ويدخل الكثير من الركاب ويكتظ المترو، أمسكت بحقيبتي بخوف ملحوظ، وفضلت الجلوس على أقرب كرسي اتسع ليحملني. تُغلق الأبواب ويتحرك (المترو) معلنًا محطته القادمة، فراجعت في ذاكرتي اسم محطتي التي أريد الوصول إليها، وقارنتها باسم محطة الرجوع....

تمر محطات وتذهب محطات، منها المكتظة وأخرى فارغة تماماً كقلوب البشر، القلوب الفارغة والمفرغة، هي الأكثر خفة وراحة، والقلوب المكتظة قلقة ومتعَبة.

تبدأ الشمس بالغروب، وتزداد المدينة جمالاً، فأنسى خوفي

من الليل؛ وأنا التي كنت أخشى ظلمة الليل. فلليل تناقضات تُسهِرني، ففيه سكينة ووحشة، حب وخصام، شوق ولقيا، ولليل أسرار تولد أو تنتهي.

تذكرت نبيلة وقصة حبها التي أسرّتني، حينما كانت تعرّفني بالحب لأول مرّة. ففي أحد الأيام رأيت إهداءً على صفحات رواية أعطتني إياها لكي أقرأها، وحين حكت لي، شعرت لأجلها بالأسى، وغبطت حظها الذي جعلها تعيش مرحلة من العمر لا تعوّض، مع أن الحب قد لا يكتمل، لكنه حظ تناله قلوب تستحقه.

ينفتح باب القطار مرة أخرى، يدخل شاب طويل القامة، أسود البشرة فبدأت قليلاً بالانكماش! استنكرت نفسي، ترى ما الذي جعلني أخاف منه أكثر من بقية الركاب؟ هل السبب لونه، أم بسبب موروثي الفكري؟! فلطالما ورثنا وتوارثنا ونوّرث أخطاء تتحملها البشرية.

انتبهت أنني لم أواجه أسود بشرة مثله من قبل. تذكرت المقولة التي تقول إن آدم أبو البشر كان أسود، فتخيلت مشاعر الأب مرسومة على محيا ذاك الشاب، وبدون أن أشعر ابتسمت له، فابتسم لي.

تعجبت من نفسي، فلو أنني تبسمت في بلدي لرجل او حتى لامرأة، أو مجرد أن أبتسم في الشارع لكان الأمر مختلف جداً.

فستكون الشتائم عليّ من كل حدب وصوب! ترى لماذا يحرّم علينا الابتسام، بينما الرجال يضحكون بملء أفواههم، حتى وان كانت ممتلئة؟!

تأخرت محطتي على غير ما ظننت، شعرت بهلع مفاجئ لمجرد شكي أنني قد تخطيتها دون أن أدري. التفت يمينًا ويسارًا وقلبي يرجف. حاولت البحث بين الوجوه عن وجه أستطيع فهم ملامحه، لشخص يفهم لغتي البسيطة، فاتجهت إلى أمام المقطورة، وتذكرت أن هذا المترو بدون سائق أو مراقب.

اشتد خوفي وفجأة..... سمعت صوت نداء محطتي الأخيرة... أغمضت عينيّ التي كانت على وشك الخروج من محجريهِما.

تنفست بعمق، انفتح الباب، خرجت وبحثت عن اللافتة التي من المفترض أن تشير إلى باب الخروج من المحطة نحو الشارع الرئيسي، تتبعت المارة حتى وجدت المخرج، تنفست بقلق وأنا أفكر كيف سأعود إلى البيت بنفس الطريق.

واصلت السير، تذكرت أن عليّ أن أعبر الشارع، ذلك التقاطع الكبير الذي حصل به حادث مروري مروّع قبل أقل من أسبوع، كما حكى لي خالد، قال إن الضحية كانت سيدة في الخمسين من العمر، والسائقة فتاة طائشة.

ترى من منهما كانت حياتها ستكون مثمرة أكثر؟ امرأة شابة ما زالت الخيارات أمامها أكثر تفرعًا؟ أم امرأة في العقد

الخامس قد لاكها الزمن وأدركت كنهه؟

قطعت أفكاري فها هو الشارع أمامي، شارع كبير ودافئ لا يوحي بالخوف كما كان (المترو) يشعرني، ولكن التقاطع هو الأهم. اقتربت من نهاية الرصيف، انتظرت كما ينتظر الواقفون تحت إشارة المرور، حان دورنا في العبور، احتميت بالمارة المجاورين لي، ومشيت بينهم حتى وصلت إلى الطرف الآخر.

اتسعت خطواتي وكأني أقفز من الفرح، وأخيرًا وصلت إلى باب المعهد. ابتسمت ابتسامة نصر، مرددة في سري نجحت، وها أنا استطعت الوصول بأمان.

دخلت من باب المعهد، ونشوة انتصاري تتمثل بابتسامة عريضة تكسو محياي. تتبعت الإشارات إلى أن وصلت للصف. باب زجاجي أستطيع أن أنظر من خلاله إلى مجموعة من الشباب والشابات، جميعهم أصغر مني سنًا يضحكون ويتكلمون بالإشارة أكثر من الكلمات.

فتحت الباب، اتجهت كل الأنظار نحوي، ابتسمت وردوا عليّ بابتساماتهم وتحياتهم واحدًا تلو الآخر.

لم أجد من يعرف لغتي فجميعهم من جنسيات وعوالم مختلفة، كانوا أيضًا من أديان وقناعات مختلفة، مع ذلك كانوا يضحكون ويتكلمون سويةً بكل حب ووئام، تنهدت

وأنا أفكر أنهم سيكبرون يومًا وتكبر مصالحهم، عندها هل يا ترى سيكذبون ؟ سيتحايلون ؟ سيتقاتلون؟ أغمضت عينيّ من هول الفكرة وبشاعتها، ثم فتحتهما من جديد وفكرت، ما دمنا في هذه اللحظة فلنعشها، لن أربط حاضرنا بحاضرهم فلعل القادم أجمل.

واخيراً دخلت معلمة شابة في نفس عمري تقريباً، ترتدي تنورة بيضاء طويلة، وقميصًا ينتهي إلى خاصريها، بألوان فاتحة تلائم لون شعرها الاشقر القصير. سرعان ما شبهت ابتسامتها بابتسامة لإحدى ممثلات هوليود، ظللت أعصر ذاكرتي لكي أتذكر اسم الممثلة التي تشبهها، بل هيّ أجمل بكثير منها..

تعجبت من نفسي، فما أسرع ربط ما نشاهده في الواقع بالتلفاز؟ ولكن كم من الناس يا ترى يتأثر بهذا العالم المرئي؟ فيعيش واقعًا مغايرًا عن بيئته المحسوسة ؟ وكيف يكون المرء إذ ينظر إلى عالمٍ ويعيش في آخر ؟!

بدأ الدرس، ويالها من مفارقة؛ أن أحظى أخيرًا بما حرمت منه في طفولتي، فقد كان الدرس بالألوان والألعاب والأنشطة البدنية.

كنت كمن يدرس في روضة أطفال، حتى أن الحماسة أصابتنا جميعًا، فكأننا خلعنا أعمارنا وفوارقنا خلف ذاك الباب الزجاجي. إنهم يجعلون تعلم لغتهم جميلاً وجذاباً حتى

علـى من هـم بأعمارنا ، تذكـرت مدارس وطنـي الابتدائية ، كانت ذكرى كلها باللون الرمادي وألوان أخرى قاتمة.

انتهى اللعب وحان وقت تحصيل الدرس. وزعت المعلمة أوراق الأسئلة على كل أفراد الصف. لم أجـد صعوبة في الإجابة ، انتهيت سريعًا ، ووضعت الورقة جانبًا علامة الانتهاء.

اقتربت مني المعلمة ، وحين رأت إجاباتي صحيحة ومرتبة ، سألتني عما إن كنت قد حضرت اختبار القبول.. ارتبكت فقد كانت أول مرة أحتاج فيها للحديث إلى شخص أجنبي بلغته.

كررت المعلمة سـؤالها بلغة أبسـط ، فأجبتهـا وأنا اتلعثم كأني لم أدرس في جامعة من قبل ، كنت أشـعر أني ضئيلة أمامها ، سحبت المعلمة الكرسي الذي بجواري وجلست عليه ثم قالت :

«لماذا انتِ محرجة ؟».

أجبتها وقد اشتد أزري:

«لأني لا أفهم كلّ حديثك».

ـ ها أنت تحدثينني الآن و بلغتي وأفهمك ! بينما أنا لا علم لي بلغتك. أولست تملكين لغتين ، وأنا لا أملك إلّا لغة واحدة.

وابتسمت ابتسامة هادئة وأكملت حديثها بصوت ناعم :

«أنتِ على علم أكثر منّي ، ومع ذلك لم أفقد ثقتي أمامك».

كان كلامها ينساب منها ببساطة، كانت تتكلم ولم تكن تدري تأثيرها عليّ، وبأن كلامها كوّن علامة فارقة في حياتي؛ جعلتني أنتبه بمدى انتقاصي لنفسي، فقبل ذلك اليوم كنت أظن نفسي أقل من الجميع، إمّا لأنني لا أجيّد لغتهم، أو لأني لا أرى نفسي بينهم، ولكن ماذا عنهم؟ فهم لن يفهموني، ولا ينتمون إليّ، أحقًا أنا أفضل مما أظن؟ أم ظني هو أفضل منّي؟

بين كل من عرفت، أنا لست منهم، لست من أسرة العم ناجي، ولا ابنة العم جمال، لست نبيلة ولا حبيبة خالد، حتى خضرا التي أسميت نفسي يومًا بها ليست من لوني.

من أنا؟ هل أنا ابنة من أراد قتلها؟ وأمي التي أضاعتني، ثم تركت الدنيا وهي تعلم أنني وحيدة فيها! والعم ناجي هل حماني من صالح الدوهي أم رماني للعمة.

عدت إلى شقتي بخوف أقلّ، فلم يعد الشارع يخيفني، ولا أي شيء سيكون أكثر إخافةً مما واجهته سلفًا في حياتي، فذاك الشارع الذي كنت أخافه في صغري، أنا منه وعشت به، بل لعلّه هو الشيء الوحيد الذي أنتمي إليه. أنا في الحقيقة ابنة الشارع، وكذلك الجامع، لم تضيعني خضرا، ولم يحميني العم ناجي، ولم يقتلني أبي، كل تلك الأقدار كانت خيوطها بيدي، قدماي من تحملاني، عيناي من تنظران، أذناي من

تسمعان، ولساني وقلبي وفكري هم لي.

وضعت يدي على صدري وشعرت بنبض قلبي، ضممت صدري بذراعي وشممت عبقي، نعم لي عبق. عبقي الخاص وليس عبق خضرا. اليوم سأنام ولن أنتظر أحد.

وبعد مرور ثلاثة أشهر أردت العودة لبلدي. كنت أظن أني لن أستطيع الاغتراب لأكثر من شهر واحد، لكن شغفي للتعلم جعلني أطيل فترة إقامتي إلى ثلاثة أشهر، أمّا الآن قد استنفذت صبري مع الغربة، وأشعر بعوزي وشوقي لداري وموطني، فقررت الرجوع.

ودعت زملائي ومعلميّ وقد ربطتني بهم علاقة مودة صادقة، فقد كان ما تعلمناه هو عن الحب والخير، كنا كما لو أننا عدنا أطفالًا، نستخدم ملامحنا لكي نُفهم، ما أجمل أن تمتلك مفردات لغة تحثك أن تكون بها إنسانًا قادرًا على التعبير عن نفسك وفكرك وبيئتك.

أخبرت خالدًا في الهاتف بقراري، وكان غير راض عنه، خصوصًا أنه علم بتقدّمي الجيد في اللغة.

أخبرته أن الغربة لا تناسبني، وأني لن أستطيع الاستمرار دون أحبتي. لم يقتنع، لكنه تقبل الأمر على مضض. أردت لقاءه لتوضيح وجهة نظري، فأخبرني أنه يمشي كل يوم في الصباح الباكر في حديقة قريبة منّي.

ذهبت في الموعد إلى الحديقة، مشيت بين أشجار أعمارها سنوات طويلة من الجهد والاهتمام، رأيت عمالًا ينظفون شوارعهم بحب وعناية، هم لا شك يحبونها، يحبون كل شبر فيها، فالحب يتجلّى بالعمل. توقفت أمام كرسي مزخرف ومنحوت على شكل وريقات مطوية، جلست عليه أتحسس زخارفه بيدي وأنتظر خالد.

رأيته قادمًا من بعيد يرتدي ملابسه الرياضية، مازال يبدو فتيًا كما عرفته، لها الحق خضرا أن تغرم به.

رأيته يقترب فعاد إحساسي القديم به، بأن لديه شيئًا مّا يخصني، لكني لست أدري ما هو! وضعت كفي على صدري فشعرت بقلبي ينبض بانتظام، فلم يعد لديه تلك الطبول القديمة التي كانت تدق بحضوره.

تذكرت ولعي به حينما كنت في الثانية عشرة من عمري، وابتسمت. تقدم نحوي فتبسم لي وحياني، كان لطيفًا كعادته، وبعد أن جلسنا وتكلمنا كثيرًا قال لي:

«هذه حياتك، واعلمي أن قرارك هذا أنا لست راضيًا عنه».

ـ لم أستطع أن أعتاد الغربة يا خالد، أشعر وكأنني سمكة حبست في دلو.

ـ ألا ترين حولك؟ أي دلو أنت به؟!

ـ الوطن أفسح لي من كل هذا، بقلوب أحبتي فيه.

ـ سمعت أن الأوضاع هناك تزداد ضيقًا.

ـ أريد أن أكون معهم إن احتاجوني.

ـ تمنيت لك مستقبلًا أكثر اطمئنانًا ، وسلامة.

ـ العمر دون الأحبة كئيب، فلا طمأنينة دونهم، وهم كل مالديّ في الدنيا.

ـ تستطيعين بناء حياة جديدة هنا ، إلّا أن بكِ عناد خضرا.

ضحكت، فدائمًا أنا لست مرئية لخالد ، فقلت:

«هذا ما أظنه، أنت دومًا تراها بي».

تفاجأ وارتبك من قولي وقال:

«مع أنكما ـ كما تبين ـ لا تتصلان بصلة قربى، إلا أنني أراك وكأنك ابنتها».

ـ هي من أعطتني حياتي هذه.

ـ إذاً ، وكأنها أمك..

ـ كأنها..

ـ اغفري لها يا نور.

ـ غفرت لها منذ زمن، فمن يدري كيف كانت ستكون حياتي لولاها.

تنهد خالد ثم قال:

«ألن تغيري رأيك بالرجوع؟».

أجبته وأنا أهز رأسي:

«قد حسمت أمري».

ضرب بكفيه على فخذيه بيأس، وقام من الكرسي وقال:

«كما تشائين يا نور».

ودعني ورحل، وكأن ذكرى خضرا تثقل قلبه، فكلما رآني تذكرها، وكلما كنت معه أشعر بقلبه كريشة في مهب حديثي.

دعتني ليلى إلى بيتهم قبيل يوم رحيلي. لم أكن أعرف عنوان البيت من قبل، وبدلاً من أن يعطوني إياه جاء محمود ليقلّني إلى هناك.

كان محمود يصغرني ببعض سنوات. مازلت أذكر مشاكسته واستفزازه لي حينما كنا صغارًا، ولكنني لم أكن أتخيل أنه ما يزال يحمل لي كرهًا باديًا عليه حتى اليوم، فكل ملامح وجهه تدل على ضيقه من وجودي.

حاولت الأخذ والرد معه، لكي أخفف من ضيقه دون جدوى، فقد كانت إجاباته سريعة ومقتضبة، وكأنه يقول لا تحاولي. شعرت بالحاجز الكبير الذي صنعه بيني وبينه، فآثرت الصمت حتى وصلنا.

لم تستقبلني ليلى في الباب كما فعل خالد ، سألت عنها ، قال خالد إنها مشغولة في المطبخ، دخلت إلى المنزل، سمعتها تناديني كي آتي إليها.

ذهبت إليها في المطبخ، فسلمت علي ببرود ثم أشارت إلى حوض المطبخ دون أن تتكلم ، تعني أن أغسل ما به من أطباق.

أدركت أن ليلى تغيرت في هيئتها كثيرًا ، ولو كنت رأيتها من قبل في الشارع لما عرفتها ، لكن طبعها المقيت لم يتغير أبدًا ، بل ازداد قباحة ، فكأني بها تتراجع دون أن تتقدم.

تساءلت: كيف لكل هذه الرفاهية ألا تغير فيها؟ وهل يزداد الإنسان تعاطفًا مع الآخرين كلما اقترب من همومهم وعيشهم وجرب معاناتهم، أم هل كلما ترفعت حاجاته تتعاظم معاناتهم عليه؟ أم أن بعض الناس لا شيء يؤثر بهم؟

حاولت ليلى استفزازي كثيرًا حينما رأت انصياعي القديم، فقد كنت معها كما كنت أول مرة عرفتني بها ، أحاول تجنب عنجهيتها وتعاليها بخضوعي وأدبي.

حقرت منّي رغم محاولات خالد تجنب ذلك، ففهمت أنها دعتني فقط لإشعال فتنة بين خالد وأبنائه، أو بيني وبين خالد ، فتعاملت معها بحرفية طبيب نفسي يعامل أحد مرضاه، ولم أحط من قدرها ، لا أمامها ولا أمام أولادها ، لاحظ الاولاد ذلك، فلقد أحسست بامتنانهم نحوي لصبري الطويل على

استفزاز والدتهم لي.

وأخيرًا انتهت الزيارة على خير. حمدت اللّٰه أنني لم أضطر لملاقاتها في إقامتي سوى هذه المرة، وتمنيت ألّا تتكرر.

شـكرت خالـد وودعتـه، علـى أن أراه يـوم رحيلـي فـي المطار، أصر محمـود على إيصالي لمكان إقامتي، أخبرته أنني سـأذهب لشراء الهدايا ، فأصرّ أن يصاحبني ويساعدني لإكمال مشـترياتي، لم أستغرب حماسته، فقد كنت واثقة من نتيجة تحملي لوالدته.

وبعد أن اشـتريت الهدايا ، ذهبت إلى مكتبة لأشـتري ما أستطيع حمله من الكتب.

وحينما انفردت بمحمود سألني :

اسمكِ نور خالد ناجي ...

التفت إليه باستغراب وأجبت:

نعم

إذًا أنت أختي ...

فاجأني بالسؤال، فقلت وقد انفرجت حدقتا عيني:

لا..

لـن أنكـر أنني فـي تلك اللحظـة تمنيـت أن أجيبه بنعم، تمنيـت لو أن لديّ جرأة خضـرا لأعيش دور الأخت والأخ الذي

تمنيتـه، وأن يُكون خالد أبي الذي يهتم بي، ولولا أني خائفة بأن أكشـف أمام عينيّ محمود السـوداوين لكنت كذبت، فسرحت في فكري أتخيل ذلك حتى أفقت على سؤاله:

«كيف ذلك؟ تشابه أسماء ؟!».

تعجبت أن خالداً لم يحكِ لهم من قبل عنّي، فقلت:

ولا ذلك، أبوك أنقذني من الموت بربط اسمه باسمي.

أمـال رأسـه إلى اليمين قليـلاً فلمحت شـامة خضراء على خـده، جعلتنـي أعيد النظر بفضـول إلى عينيـه، فلحظت أن عينيه تكاد تكون الأقرب لعيني أبيه، ولكنها أكثر عمقًا واتساعًا.

قال:

إحكِ لي، كيف حصل ذلك.

وحكيـت لـه كل الحكاية. حكيت عن طفلة مشـردة، وعن أبيه وإنقاذه لي، وعن العم جمال وأمي زهر، وعن دراستي مع نبيلة.

شعرت بعدها بأنني صرت له أكثر قرباً من قبل، وقد بدا ذلـك عليه أيضًا في اهتمامه بـكل تفاصيل رحلتي، حتى أنه أتـى وودعني مع خالد، وما عرفت أيهما حزين لرحيلي أكثر من الآخر.

رجعت إلى صنعاء مشتاقة لكل ما تحويها حتى لهمومها؛ كبيرة كانت او صغيرة. استقبلني الجميع بحب؛ مما جعلني لا أندم أبداً على قراري في الرجوع إلى وطني وصنعائي وحييّ الذي عشت فيه وحوله كل حياتي، مع أناس عشت بينهم واكتملت سعادتي بوجودهم.

عدت إلى عملي سعيدة بإنجازي، وبما وصلت إليه، وبحب الناس لي، كنت أستضيف أحيانًا بعضًا من صديقات الجامعة، وزميلات العمل، هن وأطفالهن لأتسلى ولأدخل بعض الحياة على الدار، و برغم تحفظي، واجتناب البعض لصداقتي، إلّا أنني وجدت نفسي أحظى بقاعدة لا بأس بها من الأصدقاء والمعارف، فلا يهمني الكم بقدر ما تهمني نوعيتهم، فما حاجتي لصداقة من تخشى على زوجها مني، او من تعايرني بتاريخ طفولتي وصباي وكأنه وصمة عار علي، فعقول كهذه البعد عنها غنيمة ترجى.

ومع كل هذا، إلا أن احترام الناس لي كان حقًا لا بد منه، استحققته بجدي واجتهادي، فقد صار جميع من في الحي يدعونني بالدكتورة، وحينما يسألني بعض من عجائزهم عن والديّ وأسرتي، أخبرهم أن لي أبًا توفي في حادث بناء، فتولاني العم ناجي وابنه من بعده، و لأني احتجت لهوية، ولصعوبة حصولي على أوراق بسبب أن والدي متوفى،

ساعدني خالد بإعطائي اسمه.

اقتنعت أنا نفسي بهذه الإجابة، فما حاجتي لحقيقة لست اؤمن بها، وانتساب لأسرة أضاعتني وأنا صغيرة، وحين وجدتني أرادت قتلي.

وهكذا صرت محط احترام الجميع، لم أنزو ولم أخجل من ماضيّ، على العكس، كنت فخورة به؛ مما زاد من حب الناس واحترامهم لي.

دعيت لأعراس الحي ومناسباتهم المختلفة، فحضرت أعراسهم كضيفة جليلة، وسمعت فنانات العرس، وجلست بجوار من كنت أخدمهن، وشربت من كاسات غسلتها فتاة صغيرة، فتذكرت نفسي، فقررت أن أنظّم دارًا ليكون ملجأ للأطفال، لعلهم يحصلون على حق اختيار حياتهم.

استأجرت مبنى بمعية بعض نساء فاضلات، وظفنا المحتاجات لعمل، وأهلّنا منهن من استطعنا، وجمعنا تبرعات، وبدأنا باستهداف أطفال الشوارع وضمهم للدار، أخذ الدار كل وقتي، رأيت فيه أحلامي تجتمع في عيون الصغار, أطفال لا حامي لهم، مثلي أنا حين كنت أعيش تحت الخوف من خضرا.

وفي أحد الأيام سمعنا بتبادل إطلاق نار في بعض المدن، وبعض المشاكل الأمنية والسياسية في أكثر من مكان،

و أكثر من مدينة ، ثم سمعنا بحرب ابتدأت ولم تنتهِ ، في أطراف البلاد. انتقلت المشاكل من مدينة إلى أخرى إلى أن سمعنا صواريخ وتفجيرات ضخمة تدك المدن ، وتهدم ما بناه الشعب ، لكننا شعب عنيد ، مازلنا أحياء نذهب إلى أعمالنا صباحًا ، ولو نموت ظهرًا جوعًا وقتلًا ، لا يهم ، ولن نخاف ، فلم يعد للخوف اعتبار بيننا ، فقد حطت الأرض أثقالها علينا ، والخوف لا وزن له أمام الحرب ، والموت يزداد قيمة أمام الجوع.

أتى الصيف أخيرًا ، وصارت تيارات الهواء أقلّ برودة ، كان الوقت مبكرًا حين وصلت إلى المستشفى. دخلت الفناء ، سمعت صوت العصافير تتعالى ، شجرة الكافور التي أمامي هي نفس الشجرة التي قابلت تحتها خضرا ، كانت تضج بعصافير الدوري ، التي دومًا ما تذكرني بخضرا ، ربما لأن لونها كلون ملابسها ، او لصوتها المتعالي وثقتها به وبما تقول ، بل هي كخضرا ، لأنها حرّة طليقة لا يقيدها شيء؛ تمامًا كما كانت ، هو الدوري ، هو عصفور خضرا.

ذهبت إلى الكافتيريا ، طلبت كوبًا من الشاي بالحليب الذي يبدع العم (علي) عامل الكافيتريا في مزجه ، فمازال الوقت مبكرًا على وصول المرضى ، ورشف كوب من الشاي الساخن في ذاك الجو المنعش؛ يبشر بيوم جميل.

رأيت طبيبة خضرا (الدكتورة مها) تمر من أمامي

فناديتها، دعوتها لتشرب معي شايًا من يديّ العم (علي).

رحبت بذلك، فطلبت من العمّ علي كوبًا آخر، الذي بدوره، ما إن رأى الدكتورة، حتى أصرّ أن يكون الكوب على حسابه محبة منه للدكتورة مها. فأخذناه بلا مقابل بعد إصراره الشديد.

دخلنا لنجلس على مكتبي. اخترت الكرسي الذي أمامها وجلست، لاحظت أنها تزداد نحافةً، تساءلت بيني وبين نفسي، عن سر إصرارها في اختيار ألوان غطاء رأسها الباهتة، التي تجعلها تبدو وكأنها تريد الاختفاء فيها. استرقت النظر إلى وجهها، فوجدت الإرهاق قد بصم على ملامحها خطوطًا دقيقة ترسم معالم تفانيها في مهنتها. فتخيلت نفسي في عمرها، فهي لم تتزوج، مثلي تمامًا، ولا أعرف لها من أهل سوى أخ وحيد رأيته يومًا هنا في المستشفى، أسمر البشرة، طويل جدًا، وشديد النحافة مثلها، لكنه مليح الملامح، خفيف الظل، يترك البهجة بعد حضوره أينما حلّ، فقد أتى معها مرّة لعمل بعض الفحوصات، مع أنه كان يبدو بصحة جيدة، لكن كما فهمت أنه يبحث عن عروس تناسبه، وقد أراد البحث في محيط أخته لكي تكون إليه أقرب.

تذكرت نظرته نحوي، وتقطب حاجبي أخته حين لحظت هي ذلك، فأنا أعلم أنها سألت عنّي مسبقًا وواجهتها إجابة لا

تناسبها.

فأردت أن أعرف ما الذي تعرفه عنّي. ولن أجد فرصة مناسبة كهذه فسألتها:

«أتعتقدين أن العم علي يذكر خضرا؟»

التفتت نحوي بانبهار وكأنها لا تنتظر مني اعتراف كهذا.

أعادت كوب الشاي، ووضعته على المكتب بعد أن كاد يلامس فمها وقالت:

«كنت أشك أنك تلك الفتاة، ولكني لم أستطع أن أصدق أنك هي..».

أجل أنا هي، لم أشك في ذاكرتك يومًا، فأنت من أخبرني بحقيقة خضرا.

كنت تظنين أنك ابنتها، أو لعلها هي من جعلك تظنين ذلك، لست أدري هل كان شرًا منها أم خيراً!

أخبريني ماذا تعرفين عن خضرا.

أمسكت كوب الشاي، وبدأت تلفه حول نفسه وهي تفكر، وكأنها تقلب ذاكرتها ثم قالت:

«كانت امرأة متمردة وقوية رغم مظاهر ضعفها، وظروفها الصعبة. الحق يقال أنني لم أطقها في البداية، فقد استفزتني كثيرًا بلامبالاتها، وأسلوب حديثها، لكن حين رأيت جانبًا

آخـر منهـا ، ثم فهمت أنها ليسـت في حالة نفسـية مسـتقرة ، أشـفقت عليها ، فقد كانت تعيش فـي أكثر من واقع ، ففي كل يوم نكتشـف فيها شيئًا جديدًا ، هل أخبرتك أنها ادعت يومًا أنها طبيبة؟

ثم بدأت تقهقه وهي تكمل حديثها :

«أقسـم، لولا أنني أعرفها لكنت صدقـت ادعائها. لذلك لا ألوم أحداً صدّقها ، ولكن ما هي حكايتك هل عرفت من تكون أمك الحقيقية؟

فعاجلتها بالسؤال:

«ما الذي يجعلك تثقين أنها ليست أمي؟».

فـي أحـد الأيام أُسـعفت إلى المستشـفى إثـر طعنة خنجر ومحاولة اغتصاب، وحين فحصتها كانت ماتزال عذراء.

دارت الغرفة بي وأصبت بدوار وأنا أسمع الطبيبة ثم قلت:

«مهلاً ، كيف تقولين ذلك؟! لقد كانت تبيع نفسها لتعيش».

هي قالت لك ذلك؟

نعم.

هي ماهرة في الادعاء، ولا ألومك إن صدقتها وكذبتني.

لكن ذلك كان على مرأى ومسمع مني!

مستحيل، كم كان عمرك آنذاك؟

كنت في الخامسة أو أقل.

كانت توهمهم، أظنها كانت تجعلهم مخمورين كي تتفادى ذلك، لذلك طعنت في مرة من قبل رجل رفضته.

طفقت أنظر في الأرض، أحاول تجميع أفكاري عن خضرا، فأكملت الطبيبة حديثها وقالت:

لقد أخبرتك أنها ادعت بنوة أحدهم، وقد فحصتها بنفسي بأمر من الشرطة كي نثبت عدم بنوتها، وقد كان ذلك في محضر رسمي.

إذاً العم ناجي كان واثقًا أنني لست ابنة خالد.

ضاقت حدقتا الطبيبة وقالت:

«أتقصدين الرجل العجوز، والد من ادعت عليه خضرا؟».

أومأت برأسي أؤكد ظنها فقالت :

«كان رجلًا صالحاً، حتى أنه بعد الحكم جاء بنفسه ليتأكد مني».

نعم كان رجلًا صالحًا.

تنهدت وبدا على وجهي الأسى، وقلت:

«مسكينة خضرا».

فقالت:

«لا تحزني عليها، عاشت حياتها كما تحب، رغم معاناتها

النفسية إلا أنها قاومتها، وعاشت بخيالها ما أرادت أن تعيشه».

وافقتها الرأي فقد كانت خضرا قوية جدًا. حرّة لا يقيدها تقليد ولا قانون حتى قوانين عقلها استخدمتها بحريّة.

قالت لي في محاولة منها لتقليل حزني:

هل تعلمين أنها عاشت حياتها كما أرادت، فهي لم تتبع مشيئة أحد سواها، لذلك أحسدها. فأنا مثلاً سبب بلائي في الحياة التقيّد بقوانين أمي...

أظن ملامح البلاهة كلها ارتسمت على ملامحي لحظتها، وتبين لي ذلك، حينما ضحكت الطبيبة مها، ثم أكملت حديثها قائلةً:

«أتينا من عدن، أنا وأخي ووالدتي بعد أن توفي أبي تحت ظروف قاسية، فتوظفت والدتي في مدرسة في صنعاء كمعلمة، أنهيت دراستي وذهبت لأدرس الطب في روسيا، كان أخي ما يزال صغيرًا، ومع أن أمي كانت ماتزال هي أيضًا صغيرة إلّا أنها رفضت أن تتزوج ثانيةً لخوفها من تقصيرها معنا. وحينما عدت بشهادتي توظفت، وتحملت المسؤولية عنها، وتكفلت بها وبأخي الذي كان في سني مراهقته آنذاك. استقرت أمورنا، وكان كلما تقدم لي أحدهم للزواج ترفضه أمي باختلاق أي حجة، فقد كانت تخشى أن أتزوج وأتركها، حتى وصلت لهذا العمر، وتوفيت والدتي قبل عامين، وها أنا اليوم وحيدة.

فقلت لها وكأني أنبهها لشيء نسيته :

«وأخوكِ؟»

أخي، سيبحث عن زوجة له، وسينساني بعد أن ينشغل في حياته. لذلك يا نور أردت تنبيهك أن لا تدعي القطار يفوتك.

ومن سيرضى بي حين يعرف نشأتي؟

ثم استطردت أنا مفاجئةً لها ولنفسي :

«هل تزوجينني أخاكِ؟»

لا أنكر اندهاشي أنا من نفسي باندفاعي بمزحة سخيفة كهذه، إلّا أنني كنت راضيةً بجرأتي تلك، فطلب كهذا هو كسر لقاعدة هشة يبني المجتمع عليها أفكارًا مهترئة. كنت أنظر إليها، أراقب ردة فعلها، فقد أردت أن أعرّفّها أن لها نفس الحق في إعلان طلب كهذا، كما أعلنته لتوي أمامها، ولكنها كانت أكثر حكمة وتحفظًا، حين جاوبتني بضحكة سريعة، ولو أنها لم تستطع إخفاء اضطرابها بها.

انتهينا من شرب الشاي، وبدأنا في العمل حين توافد المرضى واحدًا تلو الآخر، وبينما كنا نعمل كعادتنا، فوجئنا بصوت انفجار قريب جدًا، قيل لنا أن فرقة مسلحة يبحثون عن فارين داهموا المستشفى، فتصدى لهم الأمن وأغلقوا البوابة ففجروا البوابة بمن فيها.

بعد التفجير كانوا كمن لو أصيبوا بحمى القتل، فكانوا يقتلون كل ما هو حيّ يمرّ من أمامهم، حتى المرضى على أسرتهم، باشروهم بالأسلحة، ولم ينج من رصاصاتهم أحد.

كنت مختبئة خلف باب عيادتي، أراقب الممر من انفراج زاوية الباب وليتني لم أفعل، فقد رأيت مريضتي تقتل أمامي وهي تحمل رضيعها، كانت تجلس على كرسي الانتظار، وقد زوت كامل جسدها على ركن الكرسي خوفًا، تخبئ عينيّ طفلها بيديها، تظن أنه سيرى ويفهم خوفها؛ بالنظر إلى عينيها البادية من وراء لثامها، تحاول أن تحيطه بأمومتها المتبقية، لم يمهله القاتل لحظة ليصرخ، فصوَّب رصاصته المتوحشة مباشرة عليه.

انهمرت دموعي دون أدنى صوت، فالخوف كائن متجبر حينما ينالنا.

أغمضت عينيّ لعلّ الأحداث تقف، أو كأنني أحمي عقلي منها وتساءلت: «أهكذا ستكون القيامة؟ أسنعيش هذه التناقضات أمام اللّه مرة أخرى! طفل ووحش، وخوف بحضن الأمان! وكيف للإنسان أن يتحمل كل تلك التناقضات».

رأسي كانت تدوي لم يكن الموت هو ما يخيفني، ربما لأنني واجهته واجتزته قبلًا، أو لعلّ عدم خوفي بسبب

أن الحياة لم تعطني أحدًا أعيش من أجله، لكن ما كنت أخشاه هو مواجهة شياطين بشرية، فأن ترى نسخة تشبهك، تتلذذ بفقدانك للشجاعة أمامها، هو ما سيجعلك ترى وكأنك تخرج من مرآتك لتنتقم من ضعفك، ورضوخك من نفسك بقوتهم، وهذا هو مالا أريد مواجهته مرة أخرى، لذلك هربت مع من هربوا.

بعض من كان معي اختبأ في ثلاجات الموتى، أمّا أنا وصلت إلى بابٍ خلفي نظرت خلفه فرأيت أمامي على الأرض شابًا ينزف، لم أستطع تركه، سحبته إلى الداخل بصعوبة وقد شارف على فقدان الوعي، أدخلته إلى إحدى الغرف وأنا حذرة من إصدار أي صوت، أغلقت الباب وبينما كنت أحاول اسعافه وحدي سألته لكي لا يفقد الوعي :

هل يطاردونك؟

لا أدري، أنا لم أفعل شيئًا. أمي في العمليات وأنا مرافقها.

أنت ترافقها !وهل يسمح لك بالدخول إلى قسم النساء؟!أليس لديك أخت ترافقها؟

لا.

رأيت بطاقته في جيب قميصه فخطر لي السؤال فسألته:

«ما اسمك؟».

كان يتألم، ولم يستطع إجابتي، فسمحت لنفسي والتقطت بطاقته، قرأتها وغمرني الذهول، لاحظ هو ذلك. عدت لأتفرس ملامحه، عيناي وكأنه يلبسهما، فشعرت بقلبي وكأنه بين يدي.

في تلك اللحظة شعرت بحركة تحت ستارة النافذة، انتبهت لوجود ممرضة خائفة تختبئ خلف الستارة، رفعت صوتي لأحدثها بلغتها كي اطمئنها، وفي تلك اللحظة، فتح الباب مجرم مسلح، كان ملثمًا بالسواد لم يمهلنا أية فرصة، وجه سلاحه نحونا ومن دون أن أتردد احتضنت من في يدي لأغطيه من الموت، و لأحميه من الرصاص الذي جربته يومًا على يديه.

ضممته بمشاعر أم أرادت لامتدادها البقاء، وبمشاعر ابنة تريد لأصلها الثبات، أردت له الحياة أكثر من نفسي.

اكتظت الغرفة بدويّ الصوت وشعرت بدمي..

سمعت سؤاله وهو يبكي :

«لماذا؟»

أجبته :

«لأن لديك أخت، وتريدك أن تعيش».

ثم ابتسمت، لأن آخر صوت سمعته مع نحيبه، هو أصوات سيارات الإسعاف.

* * *